البيئة والبعد الإسلامي

تأليف

د. فؤاد عبد اللطيف السرطاوي

الأستاذ المساعد في كلية الحقوق / جامعة فيلادلفيا

الطبعة الأولى

1420 هـ ـ 1999 م

دار المسيـرة للنشر والتوزيع والطباعة - عمّان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾

صدق الله العظيم

«النحل : آية 212»

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

صدق الله العظيم

(النحل : آية 112)

البيئة

والبعد الإسلامي

رقـــم التصنيـــف : ٥٧٤,٥
المؤلف ومن هو في حكمه :فؤاد عبداللطيف السرطاوي
عنـــوان الكتـــاب : البيئة والبعد الإسلامي
رقـــم الإيـــداع:(٣٣١/ ٣/ ١٩٩٩)
الموضـــوع الرئيـــسي : ١- العلوم الطبيعية
٢- علم البيئة
بيانـــات النـــشر :عمان: دار المسيرةللنشر والتوزيع
* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى

1999 م - 1420 هـ



دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - شارع السلط - مجمع الفحيص التجاري - هاتف وفاكس ٤٦١٧٦٤٠
عمان - ساحة الجامع الحسيني- سوق البتراء- هاتف وفاكس ٤٦٤٠٩٥٠
ص.ب ٧٢١٨ عمان ١١١١٨ الاردن
DAR AL-MASSIRA Publishing - Distributing - Printing
Telefax: 4640950 - 4617640
P.O.Box: 7218 Amman - 11118 - Jordan

ISBN 9957 - 06 - 019 - 8 (ردمك)

الفهرس

مقدمة

لا يكاد يمر يوم دون أن نقرأ أقوالاً مسندة إلى الثقات من أهل العلم توحي بالشك في هذا المستقبل، وتغلبه على الثقة والطمأنينة، فثمة أولاً طاقة على التدمير والإفناء منبثقة من التفاعل الذي يضيء الشموع، ومن وسائل الهلاك الكيميائية والحيوية، ولا يعصمنا من شرها اليوم سوى توازن الخوف المتبادل بين القابضين على زمامها وحسبنا من الدلالة عليها أن العلماء القائمين على دراسة عواقبها، يتحدثون عن هلاك مئات الملايين من البشر، وتلوث البيئة الطبيعية، بما يفسدها مدى قرون بعد الضربات النووية الأولى. وهذا بحد ذاته يقودنا إلى حقيقة قررها الكتاب العزيز وأفرزتها العقول السليمة، تؤكد أن خير دراسة يمكن أن نقوم بها من أجل تغيير هذا الإنسان إنما هي دراسة الإنسان نفسه ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

وقد ذكر الكسيس كارليل العالم الفرنسي الحائز على جائزة نوبل في الطب، والذي أُتيح له دراسة مواد علمية أخرى كالفيزياء والكيمياء وغيرها، ذكر في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) أنه يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية، إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً

وعقلياً . . . إن المعرفة الأولية بالإنسان ووظيفته ودوره في الحياة وحدود طاقاته . . . هي الضمان الوحيد لعدم الوقوع في العيوب المنهجية التي وقعت فيها أبحاث الغرب[2] .

فالإنسان وما أدراك ما الإنسان، إنه المخلوق الذي وكل إليه الخالق استعمار الأرض، واستخراج ما في كوامنها من ثرواث وخيرات، إنه الخليفة فيها، وما أدراك ما الخليفة، إنها كلمة ذات إيحاءات كثيرة، تفرض أن يكون مزوداً بأدوات الخلافة ولوازمها، كما أن يكون دوره في هذه الحياة أكثر الأدوار أهمية وظهوراً وخطورة، لما يترتب على ذلك من سعادة أو شقاء فإليه وكل أمر عمرانها وتجديدها . فإن أحسن السير في مناكبها، فدبر شؤونها وعمر أقطارها، واستخرج خيراتها، وأثار كامن ثروتها، وسار في مناهج العدل فيها، ونشر العلم الصحيح بين سكانها، ولم يحد عن العمل بالأناظيم التي سنها الخالق سبحانه، كان خليفته حقاً، وظل بيده زمام أعمالها، وإن أساء السيرة ولم يحسن القيام على ما استودع، حل به ما حلّ بغيره، فصار ذليلاً بعد العز، وضيعاً بعد الرفعة، محكوماً بعد أن كان حاكماً، فقيراً بعد أن كان غنياً، ويورث الله ما كان بيده غيره، وينزع عنه لباس الإمارة، ويلبسه من اختاره لها . . . وتجويد أعمالها، وتحسين حال سكانها بنشر العلم وبسط لواء العدل، والاحتياط لدفع العدو، والأخذ بيد الأعمال النافعة، كالزراعة والصناعة والتجارة[3] .

وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه العزيز : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[4] .

والصالحون إنما هم القادرون على التشييد والبناء بسواعدهم المفتولة، ضمن إطار من التخطيط المرتبط بالخلق السامي، والمصلحة العامة، والنظرة الجماعية التي لا تغلب جانب المادة على جانب الروح، وفي الوقت الذي يطغى فيه جانب على آخر تختل الموازين ولا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيما ينتجه عقله وتصنعه يده فيكون دماراً على نفسه وعلى غيره من المخلوقات، ومن هنا فإنه لا يجوز أن يجعل الإنسان جسمه الكثيف حجاباً غليظاً بينه وبين روحه المستمدة وجودها من النور الالهي ومن الحكمة الربانية، بحيث لا يطمس معالمها ولا يجعل لها وجوداً في حياته ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، ولما كان لا يجوز للإنسان بوجه من الوجوه أن يحرم جسمه من الغذاء حتى يموت جوعاً كذلك بل الأولى لا يجوز أن يهمل روحه من غذائها الروحاني. . . أليس من أعجب العجائب أن يعتقد الإنسان أن له روحاً باقية ثم هو يهمل أمرها ويهضم حقوقها ويمنعها من غذائها. . وأعجب من هذا ألف مرة من يتوهم أن الصيام والصلاة يضعفان البدن ويمنعان الإنسان من مزاولة أعماله وهو وهم فاسد سببه ضعف الإسلام وعدم شعور القلب بلذة الإيمان(5).

وفي الوقت الذي استطاع فيه المسلمون إيجاد التوازن بين متطلبات المادة والروح وبين العلوم وأسباب التمدن امتدت مدنيتهم إلى مناطق شاسعة شهد لها العدو قبل الصديق بأنها أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبهه غيره، بحيث أصبحوا منذ ذلك الوقت أساتذة ومعلمين لكل من جاء بعدهم بلا منازع، حيث تتلمذوا على أياديهم في شتى ميادين العلوم، إضافة إلى أن حضارتهم

ملكت بلاد اليونان ونازعت النصرانية في عقر دارها، ونشرت نفوذها على الصحارى والغابات والبحار في مختلف قارات العالم المعروفة في ذلك الزمان وكانت لهم دراسات ونظريات علمية يظنها كثير من الناس من وضع علماء هذا العصر، كما والعجيب في هذا الأمر هو أنها استطاعت أن توائم بين المادية وبين الروح وأن تنجب من ذلك التوأم أمة هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وتلك هي أعمدة الإصلاح البيئي في كل زمان ومكان.

ويتحدث (درابو) الأستاذ بكلية نيويورك عن مدنيتهم فيقول: «إن خلفاء الأندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة التي هي من لوازم الحياة الشرقية، وكان لهم قصور عامرة، وحدائق زاهرة، يعمرها الجلالة والجمال، وأن أوروبا الحالية لا تعلو في حسن الذوق والرقة والظرف في شيء من أشيائها عما كان في العواصم العربية الأندلسية في الزمن الذي نتكلم عنه، كانت شوارع هذه العواصم مضاءة بالليل ومبلطة تبليطاً متقناً، وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش، وكانت تسخن في الشتاء بالمدافىء، وترطب في الصيف بتيارات من النسمات المعطرة، تصل إليها من سراديب تحت الأرض، مغطاة فوهتها بالأزاهر الزكية، وكان لهم حمامات ومكاتب ومحلات للغذاء، وفوارات للمياه والزئبق، وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذي كانوا يأتونه على نغمة العود والمزهر، وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس، بخلاف جيرانهم الغربيين، فقد كان دينهم النهم في الأكل والإدمان للسكر، وكان

الخمر حرام عليهم لا يقربونه، وكانوا يتمشون في حدائقهم في الليالي القمرية، وفي غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالاً، وهم يصغون إلى قصة أدبية، أو يتحاورون في بعض المواضيع الفلسفية، مسلين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم، أنها لو كانت خالصة من شوب الآلام لأنستنا الحياة الآخرة، وراضين بالكد والتعب في المعيشة الأرضية أملاً في نوال الراحة الآخروية الدائمة. . . وإن تعجب من هذا فأعجب منه أنه كانت مساجدهم بجوار هذه المعاهد الفتانة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الأعلام على الرؤوس أجمعين يقول المؤذن حي على الفلاح فتجيبه الأرواح قبل الأشباح، وتسجد لندائه الأفئدة قبل الجوارح، لا كما نحن اليوم يلفتنا ملهى قذر عن أكبر مطلب من مطالب أرواحنا، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغيبة لنفوسنا، حتى إن ما أقيم في بلادنا من تلك المعاهد التافهة التي لا تساوي جزءاً مما كان لآبائنا قد أنسانا الدين والدنيا والشرف والحياء والحياة(6).

إن اعتراف رواد الحضارة الغربية، وكتابها بأن الحياة المادية وحدها لا يمكن أن توجد بيئة صالحة لا تعرف المجون ولا الايدز ولا الربو وأمراض القلب، حيث أن الواقع الذي يعيشه العالم اليوم قد أثبت بأن علم الإنسان ببعض الحوادث الطبيعية لا يمكن أن يكون جرعة دواء ناجع أمام ذلك الإلحاد المتجدد، والذي أصبح مذهباً ودعوة من أجل أن يدين كل فرد بما يرى دون أن ينتبهوا إلى أن هذه الفلسفة تحمل تناقضاً واضحاً، لأنها ترجح الجانب الحسي وتطمس الجانب الروحي، وتجعل من الإنسان آلة لا تتعامل إلا مع المادة، وكلما ازداد البذخ والجبروت نما معه الجحود والإلحاد، وتضاءلت أمام ذلك

فرص الإصلاح البيئي الذي لا يمكن له أن يترعرع إلا في أحضان العقيدة والدين، والسبب الأكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البدع الجديد، واغتال من نفوسنا أشرف عواطفنا، هو ولا شك العماية المطلقة عن قوانين الحياة، ولقد بُلينا بكتّاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدنية الجديدة، فقابلوا الأمة وهي في غفلة عن ذاتها، فصوروا لها المدنية الحالية في صورة خيالية محضة، وانتهزوا فرصة فتور حركتها، فملؤوا فؤادها يأساً من لحاق بشأن الأمم الأخرى، ونفثوا في روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها، فنشأ تحت هذه النغمة نشء من الناس مستعدون للتقليد والمحاكاة، فسلكوا المسالك التي نسعى جهدنا اليوم لردهم عنها[7].

وخلاصة القول فإن صلاح البيئة أو فسادها إنما هو مرهون بالإنسان نفسه، فإن صلح صلحت معه بيئته وإن طغى وفجر وفسد فسدت معه بيئته، مع ملاحظة أن أصل النشأة للبيئة الأول كان قد روعي فيه كل ما يحقق سعادة الإنسان ورفاهيته، ويكفي أن تكون خلافة الأرض مضافة إليه، فالإنسان هو مهد البيئة وإطارها، والبيئة هي الإنسان وأخلاقه وسلوكياته سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي، وبالقدر الذي تتلاءم فيه طبيعة الإنسان مع السنن الكونية وتسخرها لخدمته وتستفيد منها، بالقدر الذي تظهر فيه علامات السلامة العامة، والنظرة السليمة، والعيش تحت مظلة من السلوكيات الخلاقة، في جميع مجالات الحياة دون ضجر أو ضنك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[8].

لقد كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت الكثير من مثقفينا وكتابنا وطلابنا وقد أخذتهم الحضارة الغربية بزخارفها وسحبت أرجلهم إلى أوحالها

ورذائلها، فصقلت عقولهم، وأصبح كل وليد لها شريفاً، وكل جديد منها مقبولاً، وكأن الأمة الإسلامية لم تترك لهم تراثاً ولا علماً ولا فكراً، مع أن خزائن المخطوطات في الأوسكريال وواشنطن وتركيا وغيرها مليئة بأمهات المخطوطات التي ما زالت موضوعاتها دفينة تحتاج إلى جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة لإخراجها إلى دائرة الضوء والنور.

وعلم البيئة وأهميته في حياة الإنسان هو أحد هذه العلوم التي ظن الكثير أنه من نتاج الفكر الغربي، وأن الإسلام لم يعالج مثل هذه القضايا لا من قريب ولا من بعيد.

فأحببت أن أتطرق إلى هذا الموضوع بشيء من البيان المدعم بالنصوص الشرعية والوثائق التاريخية لتكون شاهداً على صحة ما نقول، ودليلاً ساطعاً في سماء الأمانة العلمية التي تفرض علينا أن نعترف للمحسن بالإحسان وأن لا نتجاوز الحق إلى الباطل وننسب الأمر إلى غير أهله ظلماً وزوراً وبهتاناً.

وفي تقديري المتواضع أنني حاولت جهدي إظهار هذا المعنى بصورة استقرائية واضعاً النقاط على الحروف، قاصداً بذلك وجه الله عزّ وجلّ، وسائلاً المولى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فما أحسنت فيه وجودت فالفضل فيه لله، وما قصرت فيه وأخرت فأني أسأل الله المغفرة والرضوان، وأسأل الأخوة الأفاضل تذكيري والتجاوز عن ذكر عيوبي، فالنقص من صفات البشر، والكمال لله وحده.

والله من وراء القصد

د. فؤاد عبداللطيف السرطاوي

الهوامش

1- سورة الرعد، آية رقم 11 .

2- نقلاً عن دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، دار القلم، ص17، 27، بتصرف .

3- عظة الناشئين، الشيخ مصطفى الغلاييني، بيروت، مطبعة البنات، 1913، ص102 .

4- سورة الأنبياء، آية رقم 105 .

5- الإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي، مصر، المكتبة التجارية، 1932 جـ2، ص81 بتصرف .

6- المصدر السابق، جـ1، ص278-280 بتصرف .

7- نفس المصدر، ص280 .

8- سورة قريش، آية رقم 3 .

بين يدي البحث

سطع نور الرسالة المحمدية في مكة المكرمة، ولم تكن جزيرة العرب في ذلك الوقت إلا جزءاً من صحارى شاسعة فيها بعض المناطق ذات التربة الخصبة والمياه المعدنية والواحات والوديان التي تفيض بمياهها على وارديها، وذلك في الوقت الذي كانت فيه بلاد اليمن تفيض خيراً وبركات من كثرة ما تنتج من الخضار والفواكه والزراعة والثروة الحيوانية التي أغنت بمجموعها بلاد اليمن وحضرموت وجعلت منها مركزاً تجارياً حيوياً يؤمه غالب دول العالم المعروف في ذلك الوقت.

ومع كل ذلك فإن الجزيرة العربية قد لعبت دوراً فعالاً في التجارة الدولية بين افريقيا الاستوائية وبين أوربا ودولها المتطرفة التي كانت في أوج عظمتها حيث كانت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية. ولا شك في أن ظهور الإسلام في تلك المنطقة بالذات كان له مع الأيام أثر كبير في لفت نظر العالم إليها ومحاولة استكشاف مجاهيلها من بين ثنايا صحاريها المترامية الأطراف، وعلى الأقل فإن المتبصر في آيات القرآن الكريم ليجد هيمنة للهجة القرشية في اللغة العربية على سواها من لهجات القبائل العربية الأخرى، دون أن يكون لتلك القبائل أنكار أو احتجاج.

ومع ما تعرضت له مكة من صراع فكري بين ما وجد عليه أهلها الآباء والأجداد، وبين ما حمله إليهم النبي محمد عليه الصلاة والسلام فإن هذه

المدينة لم تفقد أهميتها كمركز تجاري حيوي حاول الجميع أن يحافظوا عليه، بل ساهم الرسول مساهمة فعالة في ذلك، حيث قبل المتاجرة في مال خديجة رضي الله عنها. ومع تحفظي على ما يمكن أن يسمى بالحضارة العربية في الفترة التي سبقت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام نظراً لما كان يسودها من أعراف وتقاليد وعادات ومعتقدات يقوم غالبها على الظلم والعصبية والغزو والثأر بحيث لا يستطيع المرء أن يقول بأن البيئة العامة كانت منسجمة ومترابطة، فإنني أوكد أن فترة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة كانت أيضاً لا تحمل في ثناياها التناسق البيئي الذي يشكل في مجموعه حضارة وأمة متحضرة، حيث كان الصراع بين الحق والباطل على أشده الأمر الذي حمل الرسول عليه الصلاة والسلام على أن يبحث عن بيئة أفضل من بيئة مكة وأهلها، لأنه لا يمكن لأمة لا تشعر بالأمن في مساكنها ومطعمها ومشربها واجتماعها وتفرقها أن تكوّن هيئات ومنظمات وتشريعات تضبط تصرفات أفرادها وتتعاون جميعاً من أجل حياة أفضل وأحسن، يكون فيها الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض محور الاهتمام والغاية التي يصبو الجميع إلي رفعة شأنها وعلو مكانتها فتجلب له الأمن والاستقرار والصحة والعافية وتبعد عنه كل شر ومكروه ينغص عليه حياته أو يجعله طريح الفراش وصريع الأمراض. وفي اعتقادي أن الإسلام بأبرز سماته ومبادئه يمكن أن يحقق لهذا الإنسان ما يطلب ويتمنى وذلك من خلال المبادئ الأخلاقية التي ارتبطت بالفرد وعلاقته بغيره جماعات وأفراداً، ودور ذلك في تحقيق الكمال الإنساني المنشود، والمتمثل برضاء الله عز وجل ونيل ثوابه ودخول جنته إضافة إلى الحياة الطيبة التي

يحظى بها في الدنيا قبل الأخرى وبذلك يتحقق له الدعاء (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[1]، ولسنا بحاجة إلى دليل على ذلك أكثر من أن نذكّر بما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام حين اختار بيئة المدينة المنورة لتكون نواة للدولة الإسلامية التي تتحقق فيها المعاني الربانية في الدنيا والآخرة، فما أن حصلت الهجرة حتى قام بعملية التآخي التي انطلقت من الخلق الإسلامي المتمثل في قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة). وفي حديث الرسول عليه الصلاة والسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[2].

وبذلك حفظ الرسول عليه الصلاة والسلام على المسلمين عزتهم، وأبعد عن مجتمعهم المزايدات التي يمكن أن تتم في مثل هذه الحالات ولم يكن بحاجة إلى هيئة أمم ولا إلى مساعدات دولية، ولا إلى قوات أمم متحدة من أجل أن تحافظ على العُروض والعَروض، وحوّل ما يسمى اليوم بمأساة إلى خلية من النحل الذي يعمل ليل نهار ولا يعرف الملل ولا الكلل وصنع المعجزة التي تئن من وطئتها اليوم أكبر دول العالم وأكثرها غنى وتقدماً وحضارة.

ولم يمض وقت طويل حتى نمت هذه البذرة وترعرعت في المدينة وانطلقت إلى بلاد فارس والروم فدخلت في الإسلام جماعات مختلفة لونا وعقيدة ولغة وتاريخاً وفلسفة ومنهج حياة، ولكن الإسلام استطاع أن يصوغها جميعاً في بوتقة واحدة مع مراعاته للعادات والتقاليد والأعراف سواء في شؤون الدنيا أو الدين مما اضطر معه الفقهاء وعلماء الأمة إلى بناء أحكامهم عليها ما دامت لا تخالف الأصول والمقاصد العامة للشريعة،

وأخذوا بالاستحسان والمصالح المرسلة وشرع من قبلنا والعرف وغيرها من الأدلة التي أثرت البيئة الإسلامية في شتى بقاع الأرض بأحكامها وتشريعاتها.

ولا شك في أن اختلاف الداخلين في الإسلام من حيث النظم السياسية والاجتماعية والفكرية والاعتقادية حمل الإمام مالك رحمه الله على أن يرفض فكرة المنصور العباسي بتوحيد التشريع في جميع الولايات الإسلامية وإلزامها بالعمل بموطئه، وذلك لما يعلمه الفقهاء والعلماء من التباين الذي لا يمكن أن ينكره إلا مكابر بين البيئات المنضوية تحت راية الدولة الإسلامية، وهو ما شاهدناه في تنويهاتهم الفقهية وفي اجتهاداتهم بين بيئة وأخرى، مما حمل الإمام الشافعي على أن يغير مذهبه الذي وضعه في بغداد بعد أن استقر به المقام في مصر ولاحظ التباين الكبير بين البيئتين، ربما أدى هذا الاختلاف بين الفئات الداخلة في الإسلام إلى صراع دموي، يقض مضاجع الدولة واجهزتها لولا مبادرتها إلى وضع القوانين والأنظمة الإدارية والقضائية والجزائية التي تحفظ للمواطن كرامته وللمجتمع سلامته وللدولة هيبتها وسطوتها.

ولو استعرض الدارس تاريخ الدولة الإسلامية وتطور وضع الأنظمة والقوانين التي تضبط العمل في مؤسسات الدولة لوجدها تتسع يوماً بعد يوم، كلما بعد العهد عن زمن الرسالة، فلم يكن المسلمون الأوائل بحاجة إلى من يراقب أسواقهم وتصرفاتهم لشدة إيمانهم وقربهم من زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وبذلك خلت كتب الفقه القريب من عصرهم من التعقيد ومن التعرض لأنواع الحيل والغش الذي يمكن أن يقوم به أرباب السوق كل

في صنعته واختصاصه، بينما نجد بعد ذلك الكتب المؤلفة في الحسبة وما يوكل للمحتسب من مهام للمحافظة على النظافة والأمن الغذائي والدوائي والسلوك العام مع الأخذ على يد المتلاعبين بمصائر الناس والمفسدين عليهم بيئتهم الإسلامية.

ومن هذا المنطلق وبناء على ما ذكرنا فإننا نستطيع القول بأن الإسلام ومنذ اللحظة الأولى لم يهمل البيئة وأن المكان والزمان، والطعام والشراب واللباس، والعلاقات الإجتماعية، والخدمات على اختلاف أنواعها، قد عالجها الإسلام ليحفظ لاتباعه السلامة في الدنيا والآخرة، وهذا ما يشير إليه حديث الرسول عليه الصلاة والسلام حين يقول (من بات آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه وليلته فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[3].

فاهتمام الإسلام بالناس والحيوان وسائر المخلوقات الأرضية والبحرية هو أمر واضح وصريح صراحة ووضوح رسالته، التي حملها النبي عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة قبل ألف وأربعمائة عام تقريباً وليس ما نشاهده اليوم من اهتمام متزايد في الدول المتقدمة بموضوع البيئة إلا جزءاً لا يتجزأ من عقيدة المسلم وبنائه السليم تكويناً وتفكيراً، على مختلف المستويات ولجميع الأجناس، فلسان حال المسلم يقول: الدنيا نهر طالوت، والفضائل تنادي «فمن شرب منه فليس مني» فإذا قامت الفاقة مقام ابن مكتوم، أبيحت له رخصة «إلا من اغترف»، فأما أهل الغفلة فارتوا، فلما قامت حرب الهوى، ثبطتهم البطنة، فنادوا بألسنة العجز «لا طاقة لنا»[4]، وما أشبه اليوم بالأمس، فقد ارتوت الدول المتحضرة من نهر طالوت، فأصابتها التخمة،

وحتى أصبح هواؤها ملوثاً، وماؤها أسنا، وطعامها كيماويا، ونسلها انبوبيا، واجتماعها قضاء لذة وشهوة، وعندما أفاقت وجدت نفسها كالذبيح الذي يتلطخ بدمائه، تسبح في بؤرة وبيئة تقول لهم بملء فيها (حذار حذار من بطشي وفتكي، فأخذتهم الحمية وأخذوا يشمرون عن السواعد بحثاً عن الحل، ولكن من أين لهم فقد سبق السيف العذل، كيف لا وهم لا يستطيعون التخلي عن مصانعهم وسياراتهم وأسلحتهم النووية والكيماوية فصدق فيهم المثل كم من باغ ارتد عليه بغيه لعنة وخيبة، ألا يكفي أن يكون هواؤهم دخاناً، فيصابون بالأزمات الصدرية الحادة التي يرى الإنسان فيها روحه وكأنها تسحب من جسده سحبا، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)[5].

ولا شك في أن البشرية اليوم تواجه أزمة خطيرة، ومحنة عظيمة، قد لا تجد لنفسها سبيلاً للإفلات منها، وبخاصة إذا تمادت في كبريائها ولم تبادر إلى تدارك تقصيرها، لأنها تسوق نفسها إلى ملحمة من الانتحار الجماعي الذي تفوق ضحاياه ما قدمته الحروب والأمراض والنكبات والزلازل، أما يكفي أن تتكاتف ملايين المداخن من المصانع والسيارات والطائرات والأفران والمواقد من أجل أن تكون طبقة من الدخان على شكل ضباب تسوقه الرياح فيكتم الأنفاس؟ غير مقصور ذلك على البشر والناس بل يتعداهم إلى الحيوان والنبات، فيقطع النسل ويذبل الورد، وتجدب الأرض ويمنع القطر، وتفيض علينا السماء من سواد الدخان ومدر الصحاري، ويكون عندها الدخان من

علامات الساعة الكبرى التي وردت في أحاديثه عليه الصلاة والسلام.

أما يكفي المتحضرين من أبناء البشرية اليوم ذلك السيل المتدفق من أنابيب المياه العادمة ومخلفات المصانع ومحطات توليد الطاقة التي تصب في مياه الأنهار والبحيرات، والبحار والمحيطات، من أجل أن يقتلوا الثروة المائية، والكائنات البحرية، وأن يجعلوا من المياه عديمة النفع، ضررها يسبق نفعها أنهم يسمعون ويقرأون عن القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية وما أحدثته من آثار سيئة على الأرض والناس، والحياة بصوة عامة، كما سمعوا عن تسرب الغاز من مفاعل تشير نوبل في الاتحاد السوفييتي سابقاً، ومع كل ذلك ما زالت أياديهم وعقولهم تبتكر كل ما يدمر ويقتل حرصاً على هذا الواقع المرير، الذي لا يستطيعون التخلي عنه، ويحاولون في السر والعلن أن يجعلوا من العالم الثالث المتخلف هدفاً وغرضاً ينقلون إليه أمراضهم وبقايا نفاياتهم، فيرمون كثيراً من مخلفات مصانعهم الذرية والنووية والكيماوية في بحاره ومياهه الإقليمية أو ينفثونها في هوائه وأجوائه، ظناً منهم أنهم بمنجى من ذلك (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)(6).

لقد انبرت الأقلام في معظم الصحف والمجلات في العالم تكتب وتحذر وتشرح وتستنتج ولكن ذلك لم يصل لحد الآن إلى قناعات ملزمة، تدفع بالساسة والمفكرين والمخططين إلى كبح جماح نزواتهم، والنظر بعين الروية إلى ما ينتظرهم والأجيال القادمة.

نعم لقد شهدت سنوات ما بعد المؤتمر الأول للبيئة الذي انعقد تحت

إشراف الأمم المتحدة عام 72م بمدينة استكهولم اهتماماً متزايداً بموضوعات حماية البيئة، ولهذا الغرض انشئت وزارات وهيئات أو وكالات للنهوض بالبيئة والمحافظة على مواردها الطبيعية، كما سن من التشريعات والقرارات بقصد خلق إطار قانوني وتنظيمي لعمليات الحماية، وتزويد الهيئات والوزارات المعنية بالسلطات والوسائل الكفيلة لتحقيق هذا الغرض(7).

كما أن الكونجرس الأمريكي وافق بتاريخ 11 ديسمبر عام 1980 على قانون جديد يتضمن إعطاء وكالة البيئة السلطة والأموال اللازمة لتنظيف المواقد القديمة أو المهجورة من النفايات، وكذلك التخلص من النفايات في حالة امتناع المسؤول عن القيام بواجبه في هذا الصدد(8).

لقد تنبهت بعض الدول العربية والإسلامية لهذا الأمر فعقدت معاهدات واتفاقيات من أجل حماية مياهها من التلوث، كاتفاقية برشلونه من أجل حماية مياه البحر الأبيض المتوسط المنعقدة عام 1976 واتفاقية الكويت المنعقدة عام 1978م من أجل حماية مياه الخليج العربي، واتفاقية جده المنعقدة عام 1982م من أجل حماية مياه البحر الأحمر وخليج عدن من التلوث، وغيرها من المعاهدات التي عقدت في مناطق مختلفة من العالم من أجل محاربة التلوث البيئي الدخيل على حياة الإنسان والمفسد لفطرتها وحيويتها ونشاطها.

ومع كل ما نقرأ ونسمع ونشاهد من مؤتمرات ومعاهدات وندوات ومنشورات عن البيئة ومحاولة التغلب على مشاكلها إلا أننا نستطيع أن نؤكد بأن الوقت أصبح متأخراً وبخاصة إذا قارنا بين ما تبذله الدول من أجل إصلاح البيئة وبين ما تقدمه لنا التكنولوجيا الحديثة من محاولات لتحجيم الإنسان

والاعتماد على الآلة، وتقليص للمنتجات الطبيعية بالاعتماد على المواد الكيماوية والأسمدة العضوية والهرمونات. إنها أزمة الإنسان مع الإنسان، يجر فيها الويلات على نفسه وعلى غيره، لما يفسده من الخواص الأصلية للمواد، ويخل به من القوانين والسنن الكونية في كل جانب من جوانب حياة هذا الإنسان فأين السبيل وأين المفر؟ لا مفر من الله إلا إليه وهو الذي يدعونا بقوله «ففروا إلى الله» ولكن كثيراً من الأمم والشعوب تؤثر لذة القهر على لذة الأكل، كما تفعل الهرة وهي تتلاعب بالفأرة ولا تقتلها لتبين أثر اقتدارها، وربما تغافلت عنها فتمعن الفأرة في الهرب وتثب عليها فتدركها ولا تقتلها وقد عاش العالم ويعيش أياماً حالكة السواد كلها قلق نفسي واضطراب، ذلك بما قدمت أيدينا ونحن نظن أننا نحسن صنعاً. قال تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾(9).

إذا أردنا أن نتعرف على البيئة من وجهة نظر إسلامية، وكان منطلقنا جغرافيا فلا بد أن ننطلق من مكة المكرمة معرجين على المدينة المنورة وإذا كان منطلقنا أخلاقياً وعقائدياً أو سلوكياً فلا بد أن نبدأ الطريق من بلد الوحي ومهد الرسالة المحمدية من أم لقرى حفظها الله وأن ينتهي بنا المطاف إلى المدينة المنورة مروراً بالمدائن ومصر والشام والأندلس وبلاد ما بين النهرين حيث رصد لنا التاريخ أحداث وقضايا صورت المنظور البيئي في الدولة الإسلامية أفضل تصوير وما علينا إلا أن نستكشف هذه المواطن من مواقف العلماء وآرائهم المبعثرة هنا وهناك في بطون الكتب العلمية والأدبية المخطوطة منها والمحققة.

معنى البيئة

كلمة البيئة عربية أصيلة من كلام الأجداد والأسلاف، فقد جاء في تاج العروس للزبيدي مانصه «وبوأه منزلا» نزل به إلى سند جبل. . . وبوأ فيه. . . أنزله ومكن له فيه فأباءه إياه قال أو زيد أبات القوم منزلاً وبوأتهم منزلاً إذا نزلت بهم إلى سند جبل أو قبل نهر والاسم البيئة بالكسر وبوأ المكان: حله وأقام فيه. . . والمباءة أي النزل. . . كالبيئة.

والبيئة بالكسر الحالة، يقال أنه لحسن البيئة[10].

وجاء في لسان العرب لابن منظور: والبيئة والباءة والمباءة: المنزل، وقيل منزل القوم حيث يتبوأون من قبل واد أو سند جبل، وفي الصحاح: المباءة منزل القوم في كل موضع ويقال: كل منزل ينزله القوم قال طرفة:

طيبو الباءة، سهل ولهم   سبل إن شئت في وحش ووعر

وتبوأ فلان منزلاً أي اتخذه، وبوأته منزلاً وأبأت القوم منزلاً.

وأبأت الإبل رددتها إلى المباءة، والمباءة بيتها في الجبل، وفي التهذيب هو المراح الذي تبتغيه، والمباءة من الرحم: حيث تبوأ الولد، وباءت بيئة سوء على مثال بيعة أي بحال سوء، وأنه لحسن البيئة، وعم بعضهم به جميع الحال[11].

وجاء في شرح ديباجة القاموس: وبوأه منزلاً وفيه أنزله كأباءه، والاسم البيئة بالكسر، والمكان حله وأقام، كأباء به وتبوأ، والمباءة المنزل كالبيئة والبيئة بالكسر. . الحالة[12].

ويظهر من المعاني التي وردت في معاجم اللغة أن كلمة البيئة على ثلاثة معان على الأرجح :

1- المنزل الذي ينزله الإنسان ويختاره سكناً لنفسه وغالباً ما يكون بجانب جبل أو قبالة نهر ، ليدل على أن العربي كان يختار سفح الجبل ليتقي بذلك الرياح والأمطار العاتية ، وكذلك يكون قريباً من الماء لنفسه ولدوابه ولا شك أنه بهذا يضمن الغذاء لنفسه ولدوابه أيضاً ، وهذا أحسن ما يرى من الأماكن الصالحة لسكناه .

2- الحالة : وتطلق موصوفة إما بخير وإما بشر ، وقد يراد بذلك سلوكه وأخلاقه ، وأوضاعه الاقتصادية والمعاشية ، وما شابه ذلك من الصحة والمرض والقوة والضعف .

3- الوضع العام للإنسان في جميع شؤونه الدينية والدنيوية من سيرة وسلوك ومسكن ومأكل ومشرب وملبس وتعامل واحتكاك ، غير مقصور المعنى على جانب دون الآخر .

وفي اعتقادي أن هذا المعنى الأخير هو الأصلح لكي تفسر به كلمة البيئة حيث لا يمكن بحال من الأحوال أن نأخذ بالمعنى الشائع للبيئة والمقصور على البيئة الجغرافية أو السكنية ، فيقال أن هذا الطفل من «بيئة فقيرة» مثلاً لأنه يقطن في حي من الأزقة والحواري القذرة[13] .

فليس من شك في أن هذه النظرة الضيقة التي تحصر مفهوم البيئة في مظهر واحد أو مظاهر معدودة هي من مخلفات الدراسات الأوروبية التي

ظهرت في فترة حكم العائلات الاقطاعية، أو كانت امتداداً لذلك القصور الذي ينبثق عن الاستعمار الغربي، وكان صورة حية تعبر عن واقع السادة والعبيد، هذا فضلاً عن كونه لا يتناسب بحال من الأحوال مع الدراسات السيكولوجية الحديثة التي وصلت بدورها إلى قناعات تامة لا يمكن معها أن تتخلى عن أي مؤثر من المؤثرات المحيطة بالإنسان منذ نفخ الروح فيه وهو جنين في بطن أمه إلى أن يتوفاه الله ويختاره إلى جانبه.

يقول الأستاذ محمد رفعت رمضان: والمقصود بالبيئة: كل ما يحيط بالكائن من ظروف وعوامل تؤثر فيه، فالكائن الحي لا يستطيع أن يعيش إلا اذا حصل على مقومات حياته من البيئة، فما يحصل عليه الكائن الحي من غذاء وهواء ومسكن إلى غير ذلك فإنما هو جانب من البيئة يستخدمه بما عنده من صفات الحياة وخصائها، لكي يجعل هذه الحياة ممكنة لنفسه ولنوعه وكلما كانت البيئة غنية بما فيها من هذه المقومات، كلما أمن لهذا الكائن أن يستفيد مما يتاح له من الفرص كي يحيى حياة تتناسب مع هذا الغنى في البيئة(14).

وعليه فإن البيئة ليست مجرد مقومات وظروف تتهيأ للإنسان دون أن يكون له دخل في توافرها أو عدم ذلك، بل هي أيضاً دراسة للعلاقة التي تربط بين الإنسان والبيئة ومحاولة التعرف على أفضل المقومات والمعايير التي تحقق للإنسان سعادته مع هذه البيئة التي جعل بها الإنسان خليفة وسيداً، وسخر له كل ما فيها من أجل أن يستغله على الوجه المعقول الذي لا يضر بنفسه ولا بغيره ولا بأي جزئيه مما يتوقف عليه سعادته أو شقاؤه، وهذا يجعلنا نؤكد أن البيئة لا تختلف من حيث المعنى عن الثقافة والحضارة بمعناهما الشامل، وأنها

تتأثر سلباً وإيجاباً بالاعتقاد والتصورات والأهداف والسلوك وصور التعامل الداخلي والخارجي والفكر والمقومات التي لا غنى لأحد من البشر عنها كالغذاء والماء والمسكن والهواء والمحبة والكراهية والعدل والظلم وغيرها من القيم والأخلاق وبالقدر الذي يكون فيه التناسب والتناسق هو الغالب بين الإنسان وسائر ما ذكرنا بقدر ما تتحقق السعادة له ويحيى حياة آمنة مطمئنة يتمتع فيها بكل ما هيأ الله له في هذا الكون من أمور مسخرات وبقدر ما تتسع الهوة وتختلف المسارب بقدر ما ينال هذا المخلوق من ضنك الحياة وجحيمها في الدنيا قبل الآخرة وبالنظر إلى التقدم السريع الذي تعيشه البشرية اليوم والتقنية المتقدمة التي أصبحت فيها الآلة تحل في كثير من الأحيان محل الإنسان. فإنه لم تعد عادات وتقاليد وأعراف القبيلة هي المؤثر الوحيد في تكوين شخصية الفرد وصياغة بيئته المتناسبة مع مصالح العشيرة والعصبة من الأقارب، بل يمكن القول بأن العائلة والبيت ووضع الطفل في البيت وحيداً أو مع أخوته، وترتيبه بين أخوانه والشارع والمدرسة والقرية والثقافة والدين والوضع الاجتماعي للوالدين ولون البشرة، والمركز الاجتماعي والاعتماد إلى نسب معين أو عدم ذلك كله ذو أثر في تكوين شخصية الفرد في المجتمعات المعاصرة، وهذا بحد ذاته يختلف باختلاف الشعوب والأنظمةو والمعتقدات حيث كل أمة تختار وتقدم بعض المقومات على بعض، مما يجعلنا نشاهد الاختلاف الظاهر في البيئات في هذا الكون الفسيح.

ولكن أحق الأديان بطول البقاء، كما يقول العامري: «ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين، ليجد كل من ذوي الطبائع المختلفة ما

يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته، وكل دين لم يوجد على هذه الصفة، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المحال أن يسمى هنا فاضلاً، وذلك مثل ما تمسك به رهبان النصارى من هجران المناكح والانفراد في الصوامع وترك طيبات الرزق وما يتعاطاه الصديقون من الثنوية من حمل الأنفس على الوجاء والخصاء. . . وما انتهجه نساك الهند من إحراق الأجساد وتغريقها في الماء والتردي من الجبال وإهلاكها بالضم والأزم (الإمساك والحمية)».

ولو أن الله أراد لعباده حملهم على هلاك الأنفس لما علمهم صنعة لبوس لهم لتحصنهم من بأسهم ولما جعل لهم سرابيل تقيهم الحر ولما هداهم لصنوف العقاقير النباتية ليستشفوا بها من الآلام المعترية[15].

ومما لا شك فيه أن كل دين من الأديان يرسم لأبنائه ويحدد لهم البيئة التي من خلالها يستطيعون الوصول إلى أهدافهم وتحقيق أمانيهم. ويؤكد هذا المذهب ما نلاحظه من استعمالات لأصول كلمة البيئة في كل من الكتاب والسنة مع ربط ذلك بالسلوك والأيمان الذي يعتبر حالة من حالات الإنسان الدنيوية تقابلها حالة الكفر والفسوق، ومن هذه الاستعمالات الآيات التالية:

1- قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[16].

أي أن الله جعل أرض الحجر التي هي أرض عاد مباءة ومنزلاً ثم بين كيفية اتخاذ تلك المباءة والمنزل فذكر القصور المشيدة على ظهر الأرض السهلة

المنبسطة ثم ذكر البيوت المتخذة في الجبال بالنحت ونجر الحجارة التي تتكون منها الجبال .

2- قوله تعالى : ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾[17] .

وذلك ضمن النعم التي يمن بها الله على بني إسرائيل حيث أسكنهم وأنزلهم بعد أن أنجاهم وأهلك أعداءهم منزلاً صالحاً مرضياً مباركاً، حيث أورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها عزّ وجلّ .

3- قوله تعالى : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾[18] .

أي أذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة .

4- قوله تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾[19] .

أي تنزلهم وتهيء لهم مقاعدهم وأماكنهم في الحرب .

5- قوله تعالى : ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾[20] .

أي لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل المشرق والمغرب كافة وذلك قليل اذا ما قورن بما ينتظرهم في الآخرة .

6- قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾[21].

أي لننزلنهم من الجنة أعاليها وهو الفردوس الذي وعد الله به المؤمنين وذلك بسبب ما قدموا من الأعمال الصالحة.

7- قوله تعالى: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم﴾[22].

أي أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءة وتمكنوا فيهما أشد تمكن، وقيل تبوأوا دار الهجرة وأخلصوا الإيمان أو دار الهجرة ودار الإيمان وقد سمى المدينة بالإيمان لكونها مظهره ومنشأه.

8- قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين﴾[23].

أي ينزل كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة.

9- قوله تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء الآية﴾[24].

أي ينزل من بلادها حيث يشاء ويتخذه مباءة له وهو عبارة عن كمال قدرته في التصرف.

10- قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾[25].

أي اتخذا مباءة ومنزلاً ومحلاً لقومكما تسكنون فيها وتجعلونها مكاناً للعبادة.

وإن المتفحص في هذه المعاني بمجموعها ليدرك إدراكاً تاماً أن البيئة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأرض والمكان وذلك متعلق بالأفعال التي من أجلها حسنت البيئة أو ساءت، وأن الأمر غالباً حين تكون البيئة طيبة يوكل إلى سادة القوم وصلحائهم كما هو في التمكين لسيدنا يوسف ولموسى وهارون من بعده وللأنصار من أبناء أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

كما يستشعر المرء وهو يقرأ الآيات بإمعان النظر بأن لكل أمر بيئة تناسبه، فالعبادة لها مكانها ومحلها الذي يهدي إليه أولوا الأمر من الأنبياء، أو الصالحين، نلاحظه في تحديد مكان الكعبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام وفي اختيار موسى وأخيه أماكن سكن قومهما لتكون صالحة للعبادة فيها.

بينما بيئة الحرب والقتال تحتاج إلى مواقع مختلفة عن بيئة ومواقع بناء القصور في السهول أو النحت في الجبال، وكل هذه الأمور إنما تدل على أمر جوهري مفاده أن البيئة أساس من أسس النجاح أو الخسران في الحياة الدنيا والآخرة، وذلك ما يجهله الكثير من أبناء هذه الأمة، عداك عن أعدائها الذين غالباً ما يحكمون على بيئة الإنسان من خلال ما يحققه من مصالح شخصية أو يجلب لنفسه من ثروة مادية ولو كان هذا صحيحاً لما كانت هناك بيئة أفضل من بيئة فرعون وقارون الذين عاقبهما الله عزّ وجلّ ببعض ظواهر هذه البيئة التي أطاعت ربها حين غضب على ما قام به من إفساد وإذلال وأنكار لنعمائه.

أما السنة النبوية الشريفة فقد جاء فيها ما يؤكد الذي ورد في كتاب الله عزّ وجلّ ومن ذلك حديثه عليه السلام الذي يتوعد فيه من كذب عليه متعمداً

حيث قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، أي لينزل منزلة من النار أو ليتخذ مباءة وهي المنزل ومنه بوأه الله وهو أمر بمعنى الخير[26].

كما ورد في مثل ذلك الوعيد فيمن قال في القرآن بغير علم، وذلك في حديثه عليه السلام الذي يقول فيه: ﴿من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار﴾[27].

وباستطاعة المرء من خلال هذه الآيات والأحاديث أن يفرق بين نوعين من البيئة، إحداهما هي البيئة الطبيعية التي خلقها الله عزّ وجلّ وثانيهما، البيئة التي لوثتها أفعال البشر وتصرفاتهم فغيرت وبدلت، فكان ذلك وبالاً عليهم أكثر مما هو في مصالحهم، وهذا هو نفسه الذي سنتطرق إليه فيما يلي من هذه العجالة إن شاء الله تعالى.

البيئة كما خلقها الله عزّ وجلّ

ظلت الفلسفة ردحاً من الزمن تدور حول نفسها وتتيه الحقيقة بين الآراء المختلفة للفلاسفة الذين أعياهم البحث في موضوعات الكون والإنسان والحياة وهي في حد ذاتها ما يمكن أن تتكون منه البيئة أو ما يمكن تسميته بعناصر البيئة ومكوناتها.

فالكون بما فيه من طبقات وأنواء وكواكب ورياح وجبال وسهول وصحارى قد تحيرت العقول في بدايته ونهايته.

وهذا الإنسان الذي يحيى ويموت ويعمر ويخرب ويعدل ويتجبر ويتربع على كرسي الرئاسة بين جميع المخلوقات التي نشاهدها في هذا الكون لا بد أن نعرف بدايته ونهايته والغاية من وجوده وهل حياته مجرد صدفة حدثت ولم تتكرر أم أنه خلق لأمر مقدر ومكتوب منذ الأزل من بادىء الكون وخالق كل شيء.

تلك هي الاسئلة التي بقيت قروناً طويلة من الزمن يلوكها الفلاسفة دون أن يصلوا فيها إلى نتيجة مرضية أو إجابة شافية.

وقد جاء الإسلام ليوجد عند أتباعه بيئة شعارها الأمن والاستخلاف والتمكين في الأرض لكون الإنسان لا يقدم على عمل إلا وهو يعلم علم اليقين الغاية منه والأسباب الدافعة إليه فإن كان خيراً أقدم عليه وحض عليه وإن كان شراً ابتعد عنه وحذر منه.

ولا بد لكل باحث في البيئة من أن يتطرق إلى هذه الأمور الثلاثة

ليتمكن من الوصول إلى غايته ووضع اليد على موطن الداء ويتبين عندها الدواء فلا يمكن بحال من الأحوال أن تكون البيئة الأولى التي أوجدها الله عزّ وجلّ غير صالحة لمعيشة الإنسان وغيره من الكائنات التي تشاركه في الانتماء إلى هذا الكون وتحتاج إلى ما يحتاج إليه من مقومات الحياة الهادئة المطمئنة وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عن هذا الجانب المضيء التي بدأت بعد أن خلق الله السموات والأرض ففصل بينهما بعد أن كانتا رتقاً، وأهبط إلى الأرض هذا الكائن الذي يسمى بالإنسان أو بابن آدم وللتعرف أخي على طبيعة هذه البيئة الربانية تعال معي وسأترك آيات كتاب الله العزيز تتكلم دون أن أنبس لك ببنت شفة.

يقول رب العزة عن هذا الكون وما فيه من النعم الظاهرة والباطنة على هذا الإنسان: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (الأنبياء، الآية30).

﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ (البقرة، الآية22).

﴿فالق الأصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ (الأنعام، الآية 96-97).

﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ (الأعراف، الآية57).

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (يونس، الآية5-6).

﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (الرعد، الآية3-4).

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ (الحجر، الآية16-17).

﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ (الحجر، الآية22).

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ (النحل، الآية5-8).

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (النحل، الآية14).

﴿وأوحى ربك إلى النحل بأن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما

يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (النحل، الآية68-69).

﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال اكنانا، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ (النحل، الآية81).

﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ (الفرقان، الآية53).

﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون﴾ (يسن، الآية80).

هذه هي البيئة التي خلقها الله عزّ وجلّ وجعل ما فيها زينة ورحمة ولذة وتخفيفاً لبني آدم سواء كان ذلك في سمائها أو أرضها أو فيما بينهما من فراغ يمتلىء بالهواء أو ينعدم فيه وقد أشارت الآيات الكريمة إلى أن المآكل والمشارب والملابس والمراكب إنما هي طبيعية خالية من الأمراض والكيماويات التي لا يمكن أن تنعكس على صحة الإنسان بالسوء بل أشار إلى أن بعض المآكل جعل الله فيها شفاء لما يمكن أن يصيب الإنسان من العلل الناتجة عن الأخلاط أو اختلاف الأمزجة وهذا خلق الله فماذا خلق الذين من دونه وماذا صنع البشر في جمال هذا الكون وحسن هيئته؟

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن آيات العلوم الكونية قد بلغت في كتاب الله عزّ وجلّ (750 آية) كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه كما

ذهبوا إلى أن من قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها ثم دالت دولتهم فهكذا سيكون في هذه الأمة من يرون الكون من خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه، وقد ذكرها الله في كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية، والعناية الالهية توجهت إليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه فيدرسون علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة والمعادن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا ويرون أن ذلك من الدين فيكون علم الدين على قسمين حينئذ العلم الأول: علم الآفاق والأنفس أي معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة في هذا التفسير وعلم النفس. والعلم الثاني: علم الشريعة فنرى العالم الديني شارحاً النبات والحيوان والآخر مدير المعمل الكيماوي وهذا من قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[28].

نعم أنه دين الحق الذي يجمع بين الدنيا والآخرة ولا يرفض في ثنايا رحلته كل نافع ومفيد، فالحكمة ضالة المؤمن أني وجدها التقطها، فليس من المستغرب أن نعرف من أسباب تخلفنا الحضاري ذلك التخلف الذي عمّ أجواءنا وأرضنا، فلم نستطع التعامل مع متطلبات العالم العلوي ولا مع العالم السفلي، أرأيت لو أن السماء أخذت تمطر علينا قطراناً ومادة سوداء أتكون لنا بعد ذلك حياة طيبة هنيئة.

ونحن نعلم بأن القلوب ليست إلا جزأ من ذلك التصور العلوي، فإن امتلأت ذنوباً وحقداً وكراهية فما عساها تلد بعد ذلك؟ واذا امتلأت الأرض أشواكاً وأعشاباً ضارة بالحياة والإنسان، فهل تنتج الزهور والبذور، إن الماء الغدق هو الذي يروي الأرض ويجلو البصر ويطهر القلوب، فإن لم يكن

عندنا الفلكي الماهر والمزارع البارع والأرض الطيبة والإنسان المتفاني فمعنى ذلك أننا خسرنا كل شيء، ووضعنا حبل المشنقة في أعناقنا.

إن هذه النظرة الهدامة لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال إلا قوة دافعة من وراء ما أشارت إليه آيات الكتاب العزيز، التي قدمت الدنيا على الآخرة، وليس من شك في أن الدنيا تعني هذه الأكوان التي نعيش عليها ونتعامل معها ومع من عليها فهل يجوز لنا أن نهمل حياتنا بحجة أننا نريد إحياء آخرتنا هذا إن وجد مثل ذلك التصور لسنا بحاجة إلى أناس يحسنون رفع أيديهم إلى السماء فحسب وإنما نريد من يمسك بالمعول والمنظار وآلات المختبر من أجل أن يكتشف أو يخترع أو يطور، وهنيئاً لمن يضع يده مع هذه اليد، وتعساً لمن يحاول قطعها أو التعدي عليها.

ومن أجمل ما قرأت من فهم لآيات الكتاب ذلك العمل الذي قام به مفتي الجمهورية العربية السورية في مؤتمر باندونغ الإسلامي الذي عقد عام 1962م، والذي استثار إعجاب الحاضرين لما فيه من لفتة جميلة ووضع للأيادي على مواطن الداء، اذ عند القائه لكلمته قرأ الآية الشريفة: ﴿ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ وتعمد أن يقرأها خطأ بوضع كلمة الآخرة قبل كلمة الدنيا، فهب السادة العلماء في المؤتمر يصوبون الآية الشريفة فأعاد سماحته تلاوتها، ولكن تعمد ثانية أن يقرأها خطأ فقرأ كلمة الآخرة قبل كلمة الدنيا فصرخ الحاضرون من كل مكان يقولون: ﴿ربنا أتنا في الدنيا حسنة...﴾ فالتفت إليهم وعلى شفتيه ابتسامة ذات مدلول كبير فقال: أيها الأخوة رؤساء وأعضاء وفود المؤتمر أظن أنكم تعتقدون أنه لا يوجد مسلم يخطىء في هذه التلاوة للآية الكريمة ولكنني قرأتها على هذا

الشكل بلسان المسلمين الذين حذفوا الدنيا من حسابهم، إنكم لا ترضون أبداً أن نبدل لفظ كلمة بكلمة أخرى في القرآن الكريم، فكيف نرضى أن يتم هذا التحريف للقرآن في حيز الأعمال وفي نطاق الأفعال في مختلف ميادين الحياة. هل المسلمون اليوم على حالة حسنة ترضي الله رب العالمين؟ أين التقدم العلمي والتكنولوجي لدى المسلمين؟ أين الرقي والتطور الحضاري في بلاد المسلمين؟ أين العزة والرفعة التي اختص الله بها المسلمين؟ إن واقع المسلمين وإن دل على شيء فإنما يدل على أنهم اتجهوا في الأعصر الأخيرة إلى طلب الحالة الحسنة في الآخرة وترك الحسنة في الدنيا وهذا تحوير لمعاني القرآن، أخطر من تحوير الألفاظ والكلمات[29].

وبدون أن نتعلم كيف تعمل السابغات التي تقينا شر الحروب، وتسييل النحاس من أجل أن نصنع منه آلاتنا الحربية وننظر في الطبيعة بعلوم الفلك والفيزياء والكيمياء والطب والهندسة والجيولوجيا وغيرها لا يمكن لنا أن نكون ممتثلين لدعائنا: (ربنا أتنا في الدنيا حسنة) ألسنا في هذه الأيام على درجة من الجهل بأنفسنا وبعلوم العصر تحملنا على الاستجداء من غيرنا عند كل نائبة تحل بنا أو عند رغبتنا في تطوير حياتنا وقد أشغل أعداؤنا هذا الجانب فأبعدونا عن دنيانا لأنهم سبقونا فيها وأبعدونا عن آخرتنا لأنهم شغلونا بالدنيا فأصبحنا نتخبط كمن ينزل البحر وهو لا يعرف فنون العوم والسباحة.

أجل فمن نظر إلى هذه الأرض التي جعلها الله ذلولاً صالحة للزراعة والإنبات، ومكاناً للأرزاق والأقوات، أدرك بأن هذه البيئة هي الأنموذج الذي يجب أن نحافظ عليه من خلال شكرنا لنعمة الله تعالى وحتى نأكل ونشرب مما تخرجه لنا الأرض وما فيها من دواب وطيور وأنعام ويكون لنا

هنيئاً مريئاً، طهوراً مباركاً، فيه الشفاء والعافية كما أوجده خالقه سبحانه وتعالى وقد هيأ الله تربة هذه الأرض وجعلها صالحة للإنبات والإخراج، وأوجد الأسباب والظروف والشروط والقوانين التي بواسطتها تتم العمليات داخل الأرض وخارجها، فجعل التربة نفسها مشتملة على العناصر المطلوبة للإنبات، وأنزل الماء الذي به تنبت البذرة وتصبح حية بعد الممات من خلال مطر السماء أو ينابيع الأرض وأنهارها ووديانها، بالقدر الذي لا يضر ولا يكون كطوفان سيدنا نوح أو كأرض البحر الذي أنشق بعصا سيدنا موسى عندما كان خارجاً بقومه من بني إسرائيل هرباً من فرعون وقومه ثم خلق الشمس لتشع بالدفء والحرارة على هذا النبات وسائر المخلوقات، وجعلها على مسافة لا قريبة فتحرق ولا بعيدة فلا يستفاد من ضوئها وحرارتها، بحيث تطغى البرودة ويهلك بسببها الحرث والنسل، ثم أنظر بعد ذلك إلى هذا التكامل العجيب الغريب في المملكة الحيوانية والمملكة النباتية من خلال حاجة النبات إلى ثاني أكسيد الكربون الذي يخرجه الإنسان والحيوان ورفضه للأكسجين الذي يحتاج إليه الإنسان والحيوان، وجعل الهواء مزيجاً من هذين العنصرين من عناصر البيئة الخارجية التي بقدر ما يكون التناسب فيها بين هذين العنصرين متناسباً ومنسجماً بقدر ما نستطيع أن نحقق سعادتنا وصحتنا، فإذا ما اختل المعيار والتوازن فشت الأمراض إما في الإنسان والحيوان وإما في النبات والأشجار بحسب نوعية العنصر الذي طغى على غيره.

ورحم الله أبا يوسف صاحب كتاب الخراج الذي يقول: «رؤوس النعم ثلاثة: أولاً نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الجبلة إلا بها، والثالثة: نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها»(30).

ولعلّ من أكبر الأخطاء التي تهدد هذا النظام الالهي المتسق هو ما أنتجته عقولنا وفعلته أيادينا من عدم الاستغلال السليم لما في هذا الكون من عناصر الوجود والبقاء، وفي مقدمة ما يعكر صفو البيئة ويملؤها شقاوة وتعاسة المواد الكيماوية التي قد يكون ضررها ذاتياً أي ناتج عن العمل بها مباشرة لما تفرزه هذه المواد من إشعاعات سامة وضارة على الصحة العامة، أو قد تجد طريقها بأسلوب أو آخر إلى الطعام والشراب والمياه المستخدمة في مصالح الإنسان الخاصة والعامة.

فيكون تأثيرها في البيئة الطبيعية على خلاف ما فيه مصلحة الإنسان، وقوام أمره في هذه الدنيا، وقد تأكدت هذه المفاهيم نتيجة الحوادث المشاهدة من آثار الحرب العالمية الثانية التي استخدمت فيها القنابل الهيدروجينية التي أحرقت الأرض وزرعت فيها العقم وقتلت الناس وأبقت في سلالاتهم العاهات والأمراض المزمنة التي ما زال الطب عاجزاً عن اكتشاف الدواء الناجع لها، وما زالت الدول تتسابق من أجل إنشاء المفاعلات النووية للأغراض العسكرية والمدنية دون استثناء غير آبهة بما يمكن أن يلحق بمواطنيها من أضرار ناتجة عن الاشعاعات التي تصدر عن هذه المفاعلات والتي لا يقتصر تأثيرها على الشكل الخارجي والبيئة الخارجية للإنسان بل يتعداه إلى التأثير على الأجنة والأنسجة الداخلية في الجسم إضافة إلى نقل مثل هذه الأمراض إلى الآخرين عن طريق وراثي لا يمكن بحال من الأحوال أن نحد من تأثيره وانتشاره.

يقول جون دبليوجوفمان: «لا يوجد من يشك في الحقيقة الدامغة، إن الإشعاع يسبب أضراراً مختلفة واسعة لصحة البشرية، كثير من هذه الأضرار إما قاتلة أو تسبب حياة كفيلة بالشقاء، الاضرار التي قدرت في هذا الكتاب هي السرطان، البيوكيميا وتلف الكروموسوم[31].

عناصر البيئة

ونقصد بالعناصر الأركان والأصول والأمهات التي اشتملت عليها من أجل إيجاد نوع من التكامل بين عناصرها يجعلها صالحة للحياة فيها من غير اختلال في الأصل، ويمكن القول بأن عناصر البيئة التي أوجدها الله تعالى في هذا الكون، والتي أشارت إليها الأحاديث الشريفة، هي المكونات الحقيقية للبيئة في الوضع الطبيعي ويلاحظ من خلال ذلك أن بعضها مما يمكن له أن يخضع لفعل البشر وتحكماتهم، كالماء والنار والكلأ (الأرض) والبعض الآخر مما لا يمكن أن يتحكم فيه بشر وهو عنصر وحيد ممثل بالهواء.

وعلى ذلك فإن عناصر البيئة أربعة اذا استثنينا الإنسان الذي من أجله وجدت هذه العناصر والأصول، بغرض إعمار الأرض واستصلاحها والخلافة فيها.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة﴾[32]، يعني آدم عليه السلام، وقال في حق ذريته من بعده: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾[33]. ثم بين الغاية المقصودة من الخلافة في هذه الأرض وذلك في قوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾[34].

ومن هنا كانت الأرض حلبة للصراع المرير بين الخير والشر، تكفل الله تعالى فيها لأمة الخير بأن يكونوا خلفاء لمن قبلهم من الأمم والقرون التي أهلكها

الله تعالى للابتلاء والنظر كيف يعملون، يقول سبحانه: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾[35].

في هذا إشارة صريحة إلى أن الله عز وجل يمهل الأقوام والأمم التي تعمل وفق ما يعكر صفو هذه البيئة ويغير معالمها الربانية، التي تحفظ على الناس سعادتهم وتحقق لهم الأمن والطمأنينة وتأخذ بأيديهم إلى التعاون على البر والتقوى، فاذا ما تمادوا وطفح الكيل، وتأصل الكفر والعناد، أنزل الله تعالى بعقوبته وغضبه حفاظاً على التوازن الذي يجب ألا يصل فيه الحق إلى نقطة الصفر، علامة على انتصار الباطل وذهاب الحق وتلاشيه، ويؤخذ من هذا أنه مهما تطاول بنيان الباطل وعلت كلمته في وقت من الأوقات، فإن ذلك لا يعني عدم وجود الحق وإنحسار قوته وأصالته، وهو ما يؤكده قوله عليه الصلاة والسلام في حديثه الذي يقول فيه: «إنها لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»[36].

ولم تكن هذه الفئة تحظى بهذا الإطراء من رسولنا عليه الصلاة والسلام إلا لكونها تعمل جاهدة على تغيير المنكر وإزالة رواسب النكد الحضاري والخبث الفكري الذي أوصل الناس في حياتهم إلى درجة يتصورون معها أن الحياة سائرة في انحدار وانحطاط لا أمل معه في الصحوة ولا رجاء ولذلك كانت هذه الفئة غريبة عزيزة الوجود في هذه المجتمعات التي طغى فيها الكذب والكفر والفسوق والعصيان، وكانت مهمتها كما حددها الرسول عليه الصلاة والسلام: «إصلاح ما أفسده الناس من سنته».

ولا غرابة أن تكون البيئة من هذه العناصر التي ذكرنا، لأننا اذا نظرنا إلى الكائنات الحية في هذا الكون وجدناها مخلوقة أما من طين لازب أو نار أو ماء، إضافة إلى العنصر العلوي الممثل بالروح التي من عند الله، والتي يناسبها أن يتعلق الهواء، بأعز وأقدس عضو من أعضائها ألا وهو القلب، ففي أي مكان من هذا العالم الفسيح وفي أي زمان من عمر هذه الدنيا، سواء كان ذلك في البر أو البحر أو الجو، فإنه لا بد من أن تتناسب الظروف البيئية مع ما يعيش فيها من دواب، وبخلافه فإن الحياة ستكون جحيماً لا يطاق. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾(37).

وهذا ينطبق على الإنس والجان كما ينطبق على الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات والأسماك وغيرها من مخلوقات الله، لأن لكل واحدة من هذه المخلوقات بيئة تتناسب مع حياتها وطبيعة خلقتها وحيثما وقع فيها اي نوع من أنواع التغيير والتبديل الذي يخرجها عن أصلها الذي أوجدها الله عليه فإن الحياة لا تسير سيراً طبيعياً يشعر فيه كل مخلوق بجمال بيئته وغاية خلقه وعظيم منزلته.

الهوامش

1- سورة البقرة، آية، رقم 102.

2- محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، القاهرة، إصدار محمد توفيق عويضة، 1986، ج1، ص22.

3- محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، حمص، مطابع الفجر الحديث، ط1، 1967، جـ7، ص93.

4- ابن الجوزي: المدهش، مكان الطبع دار النشر، تاريخ النشر، ص175.

5- سورة الأنعام، آية رقم 125.

6- سورة الأنفال، آية رقم 30.

7- د. عبدالعزيز مخيمر: حماية البيئة من النفايات الصناعية، مصر، دار النهضة العربية، ص1.

8- المرجع السابق، ص47.

9- سورة الكهف، آية رقم 103.

10- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، مجلد 1، ص.

11- ابن منظور: لسان العرب، لبنان، دار صادر ودار بيروت، 1955، مجلد1.

12- نصر الهوريني: شرح ديباحة القاموس، بلا، ص9.

13- د. يوسف مراد: ميادين علم النفس، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1962، جـ3، ص529.

14- د. محمد رفعت رمضان وشركاه: أصول التربية وعلم النفس، دار الفكر العربي، ط5، 1964، ص108.

15- محمد بن يوسف العامري: الأعلام بمناقب الإسلام، مصر، دار الكاتب العربي، 1967، ص139-140.

16- سورة الأعراف، آية رقم 74.

17- سورة يونس، آية رقم 93.

18- سورة الحج، آية رقم 26.
19- سورة آل عمران، آية رقم 121.
20- سورة النحل، آية رقم41.
21- سورة العنكبوت، آية رقم 58.
22- سورة الحشر، آية رقم 9.
23- سورة الزمر، آية رقم 74.
24- سورة يوسف، آية رقم56.
25- سورة يونس، آية رقم87.
26- الحسين بن محمد البغوي: شرح السنة، دمشق، المكتب الإسلامي، ط1، جـ1، ص255. وانظر ايضاً ابن حجر العسقلاني، في مقدمة فتح الباري، بيروت، دار إحياء التراث اللبناني، ص88.
27- المصدر السابق، جـ1، ص25.
28- طنطاوي جوهري: الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، جـ1، ص7.
29- شوقي ابو خليل: من ضيع القرآن، دمشق، دار الفكر، ط1، 1975، ص284.
30- عبدالعزيز محمد الرجبي: فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق أحمد الكبيسي، ص28 بلا.
31 جون دبليو جفمان: الأشعاع وصحة الإنسان، بغداد، سنة 1986، ط1، ص31.
32- سورة البقرة، آية رقم 30.
33- سورة الأنعام، آية رقم 165.
34- سورة هود، آية رقم 61.
35- سورة يونس، آية رقم 14.
36- متفق عليه.
37- سورة طه، آية رقم 124 .

أ- الأرض

مما هو ثابت عند العلماء المعاصرين من أهل الفلك والجولوجيا أن الأرض جزء من الشمس ومنفصلة عنها منذ أزمان بعيدة، كانت تدور فيها الشمس حول نفسها إلى أن برد ظاهرها وانفصلت عنها الأرض وكثير من الكواكب السيارة. وهذا نفسه ما يقرره القرآن الكريم منذ زمن الرسالة بطريقة الاستفهام التقريري حيث يقول رب العزة في الآية الثلاثين من سورة الأنبياء: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون﴾.

وقد ذكر الإمام الرازي عند تفسيره الآية خمسة آراء في معنى الرتق والفتق، اختار منها ثلاثة مرتبة على النحو التالي:

أولاً: ما ذهب إليه الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقر الأرض وهذا يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هي. وأصعد الأجزاء السماوية، قال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها.

ثانياً: يقول أبو صالح ومجاهد أن المعنى كانت السماوات مرتتقة فجعلت سبع سماوات وكذلك الأرضون.

ثالثا: قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستقرار والصلابة ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى: ﴿والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع﴾، ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه، بقوله بعد ذلك: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1].

ولا شك أن طبيعة الاستخلاف الذي ارتبطت به الأرض مع الإنسان تقتضي أن تكون صالحة لمقتضيات العمل الصالح في الدنيا والآخرة، ذلك العمل الذي يؤهل الإنسان إلى أن يعمرها وأن يوافق بين البيئة المادية والروحية، حيث لم يخلقها الله وسائر الكواكب عبثاً مع العلم بأن معالم الصلاح والسداد في السلوك الإنساني في هذه الأرض لم تترك دون بيان أو توضيح، لما لذلك من أهمية في تحديد رفعة الإنسان وهبوطه فبالقدر الذي يستطيع فيه هذا الإنسان المواءمة بين المقتضيات الحضارية والمصلحة العامة وبين الهدى الالهي بالقدر الذي يسير فيه الركب ثابت الخطا، فيه التمكين والاستخلاف والطمأنينة كما في قوله تعالى[2]: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

وهذا في حد ذاته إشارة واضحة إلى أهمية الأرض في تكوين البيئة الصالحة أو البيئة الفاسدة، حيث بها تنهض الأمم وترقى الحضارات، اذا تم استغلالها والاستفادة من الثروات الظاهرة والباطنة فيها، وفق ما يرضي الله

عز وجل لكون الإنسان يقوم بالوظيفة الموكلة إليه خير قيام، كما في قوله سبحانه: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربي قريب مجيب﴾[3].

يقول الزمخشري واستعمركم فيها: أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى أنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي[4].

وقال ابن عباس: أعاشكم فيها، وقال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس وأشجار، وقيل المعنى: الهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها[5]، ويظهر عظم شأن الأرض وعمارتها والاستخلاف من خلال مراجعة سريعة للآيات القرآنية، والتي تظهر الحرص على بيان كيفية حدوثها وفنائها، وما فيها من أسرار عظيمة، وحكمة بالغة، لا تصل إليها أفهام الخلق وعقولهم.

يقول الأستاذ محمد الحاج الناصر: إن الأرض مجرورة ومضافة ورد ذكرها في القرآن حوالي (461) مرة أغلبها كانت في معرض الاستدلال على عظمة الله وسعة ملكه وتعدد نعمه وتنوعها، وقليل منها كان منسوباً إلى البشر، أما نسبة تكليف من الله أو نسبة ادعاء منهم، ادعاء يكون في معظمه نمطاً من كفر النعمة وتحدى الرسالات الالهية، فلم ترد الأرض مضافة إلى البشر إلا في نحو سبعة مواضع على حين وردت مع

النهي عن الفساد أو البغي فيها والتنديد بالمفسدين والبغاة حوالي ست عشرة مرة، ووردت في تحديد مهمة الإنسان باعتباره خليفة في الأرض وإبراز تبعة هذه الخلافة على عاتقه من حيث خاصتها ومعقباتها في نحو عشرة مواضع، منها ما جاء فيه ذكر الأرض صريحاً وما جاء ذكرها فيه بمقتضى السياق ولم يرد ذكر الأرض في القرآن الكريم متصلاً بكلمة ملك أو غيرها مما يدل على الملكية المنسوبة إلى البشر إلا ما كان من ادعاء الكفار، وهو ادعاء تدحضه بقية الآيات المتضمنة له[6].

ويكفي الأرض فخراً أن يكون الإنسان مخلوقاً منها وإليها سيعود ومنها سيخرج مرة أخرى، وقد قيل أن الإنسان خلق من تراب وأكبر همه في التراب، بينما خلقت المرأة من الرجل وأكبر همها في الرجال، ولذلك لما خلق الله آدم، كان من أولويات معارفه أن يتعلم أسماء الأشياء وأن يتعرف على ذلك لحاجته إليه في إعمار هذه الأرض فكأنه سبحانه وتعالى قال: «يا آدم لا أحوجك إلى شيء غير هذه الأرض التي هي لك كالأم، فانظر يا عبدي أن أعز الأشياء عندك الذهب والفضة ولو أني خلقت الأرض من الذهب والفضة، هل كان يحصل منها هذه المنافع؟ ثم أني جعلت هذه الأشياء في هذه الدنيا مع أنها سجن، فكيف الحال في الجنة؟ والحاصل أن الأرض أمك بل أشفق من الأم، لأن الأم تسقيك لوناً واحداً من اللبن، والأرض تطعمك كذا وكذا لوناً من الأطعمة»[7].

ومن هنا كان الإخلال في الخلافة أو الإعمار إخلالاً بوظيفة اجتماعية وسياسية ينتج عنها زوال تلك النعمة أو تراجعها بمقدار الخلل الداخل عليها.

ففي الوقت الذي يتفانى فيه الناس ويتسابقون في الزراعة والحراثة والغرس واستغلال ما يمكن لهم استغلاله بالطرق المتاحة لهم وفق ما وصلت إليه حضارتهم وتقدمهم، فإنك تشعر بلذة واستقامة الحياة التي تضمن فيها لقمة العيش الكريم ولا يكون فيها عالة على أحد من البشر مهما كثر ماله أو استطال جاهه أو عظمت عشيرته، وهذه هي نقطة ارتكاز البيئة الصالحة التي تنجب الأبطال والشجعان ولا تقبل بالأمعات وأشباه الرجال، حيث يشعر الإنسان فيها بقيمته وقدره ومسؤوليته، ويجد الحوافز التي تدفعه لان يكون سيد المخلوقات في هذا الكون دون منازع، ولا يقبل بحال من الأحوال أن يتردى إلى درجة الأنعام والعجماوات التي لا يهمها سوى ملء بطونها وقضاء شهواتها، خاصة وأن رب العزة مهندس هذا الكون قد صممه بصورة لا يحتاج معها الإنسان إلا إلى خالقه فقط، ألا ترى كما يقول الجاحظ أن هذا العالم كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مدودة كالبساط والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت والمتصرف فيه، وضروب النبات مهيأة لمنافعه، وضروب الحيوانات مصرفة في مصالحه(8).

من هنا حرص المسلمون الأوائل على أن ينهضوا ببيئتهم على خير وجه يمكن معه أن يحققوا به حمل الأمانة الموكولة إليهم، فقد ذكر ابن حزم أنه لم تزل الأنصار كلهم وكل من قسم له النبي صلى الله عليه وسلم أرضاً من فتح بني قريضة ومن أقطعه أرضاً من المهاجرين يزرعون ويغرسون لحضرته صلى الله عليه وسلم وكذلك كل من أسلم من أهل البحرين وعُمان واليمن

والطائف، فما حض عليه السلام قط على تركه وهذا الخبر عموم كما ترى لم يخص به غير أهل بلاد العرب من أهل بلاد العرب، وكلامه عليه السلام لا يتناقض[9]، وليس غريباً أن نسمع من الآباء والأجداد أن الإنسان يعيش بأرضه وعرضه، فأرضه هي الجزء المادي الذي فيه معاشه وطعامه وشرابه ولباسه، وعرضه هو الجزء المعنوي الذي يعطي الإنسان نشوء العز والكرامة، ومن هنا نجد القرآن الكريم قد أشار إلى المعايش وإلى حفظ الفرج.

قال تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾، الأعراف. يقول صاحب تفسير المنار[10]، والمعايش: «جمع معيشة وهي ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية والحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرهما، وأنشأ لكم فيها ضروباً شتى مما تعيشون به معيشة راضية ثم يناقش بعد ذلك الحكمة من تقديم (لكم فيها) على (معايش) فيقول: إن المقصود من ذكر المعايش كونها نعماً منه سبحانه على الناس جعلهم مالكين لها، متمكنين من الانتفاع بها، لا كونها مجعولة ومخلوقة، والقاعدة في تقديم بعض الكلام على بعض، هي أن يقدم المقصود بالذات والأهم فالأهم منه، ولا شك أن كون المعايش لهم أهم من كونها في الأرض التي مكنهم فيها، فههنا ثلاثة أشياء: المعايش وكونها في الوطن الذي يعيش فيه المرء، وكون المرء مالكاً لها ومتصرفاً فيها ولا مشاحّة في أن الأهم عند كل إنسان أن يكون مالكاً لما يعيش به ويتلوه أن يكون ذلك في وطنه، ويتلوه وأن تكون كثيرة»[11].

وهذا يقتضي أن تكون الأرض بمكوناتها وما على ظهرها من النعم وما

في باطنها من كنوز ومعادن مهيأة وميسرة للإنسان من أجل أن يعيش الحياة الرغد، والمعيشة الآمنة المطمئنة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال التناسق الذي يجب أن يكون بين طبيعة تلك الأرض وبين الإنسان الذي يعيش عليها. ولما كانت الأرض مختلفة في الصفة والهيأة، فقد تعددت الأوطان واختلفت الألوان، وتنوعت المحاصيل والثمار، وتعددت البيئات وعبر كل جزء من ذلك عن سجيته وخلق غالباً ما يختلف عن غيره من مكان لآخر، حتى أن الأخلاق والصور تتناسب مع البلد وتحاذيه وتوافقه وتقاربه وتضاهيه فسكنى الجبال كما يقول المسعودي[12]، تخشن الأجسام وتغلظها، وتبلد الأفهام وتقطعها وتفسد الأحلام، وتميت الهمم، لما هي عليه من غلظ التربة وخشانة الهواء وتكاثفه، واختلاف مهابه وسوء تصرفاته... بينما أكبر الفضل قطع الأرض وأسناها وأشرفها وأعلاها نحو الأنجاد والتهائم لحماية الهواء الأقذار عن سكانه، ودفعه الآفات عن قطانه، وسماحة المثوى، وتهذيب الماء وصحة المتنسم، وارتفاع الأكدار، وذهاب الأضرار، ولعل هذا تفسيراً لما نشاهده من حب الأوطان وحنين كل شخص إلى وطنه. وإلى مسقط رأسه حتى جعل بعض الناس من علامات الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة.

وقال ابن الزبير: «ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم»، وقال بعض حكماء العرب: عمّر الله البلدان بحب الأوطان، وقالت الهند، حرمة بلدك عليك كحرمة والديك، لأن غذاءك منهما وغذاؤهما منه، وقال آخر: أولى البلدان بضيافتك بلد رضعت ماءه، وطعمت غذاءه، وقال آخر: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك،

وقال بقراط: يداوي كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها، وتنزع إلى غذائها، وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها، وقال جاليونس: يتروح العليل بنسيم أرضه، كما تنبت الحبة ببلل الأرض(13).

وقد اهتم السابقون من العلماء المسلمين بالأرض اهتماماً كبيراً، لكون ذلك يتعلق باصلاح بيئتهم أو فسادها، فلم يتركوا جانباً من جوانبها الا وأوسعوه بحثاً ووصفاً وعناية لم تقتصر على الأرض فحسب بل تعدتها لتربط بينها وبين أخلاق الناس وصفاتهم وألوانهم وسجاياهم وعاداتهم وتقاليدهم، والناظر في كتب الفلاحة والبلدان يجد الشيء الكثير من هذا، ويعلم مدى مساهمة الأقدمين من علماء المسلمين في الحفاظ على البيئة وإرشاد الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم الديني والدنيوي على حد سواء، كما يظهر الفهم الصحيح الذي اختطه السابقون لأنفسهم في تعاملهم مع الأرض سواء كان ذلك في الزراعة أو البناء أو التعرف على أفضل أنواع التربة والأرض لأداء دورهم المنوط بهم، وقد وصلت بهم التجارب إلى تحديد كثير من القوانين التي غالباً ما كانت صحيحة واعتمدها الناس ردحاً من الزمن يفضلون بها أرضاً على أرض، أو منطقة على أخرى، أو يتعرفون من خلال بعض الظواهر على جودة الأرض أو عدمها، فهم يقولون مثلاً: الهروب كل الهروب عن الأرض المنتنة والمالحة، والماء المالح والرمل المالح ويؤكدون أن أجود الأراضي هي ذات التربة السوداء لأنها تصبر على كثرة المياه والأمطار والحر، غير أنها لا تصلح للكرم، أما الأرض الحمراء فتصلح للزرع ولا تصلح للشجر، وأجود الأرض مالا يكثر تشققها اذا اشتد الحر وإذا كثرت

الأمطار لم يكن فيها زلق وتمليس، ولا يطول مكث الماء فيها لأنها تنشف سريعاً، كما اعتمدوا بعض العلامات الدالة على خصوبة الأرض أو عدم خصوبتها واستفادوا من خبرتهم في نوعية الأشجار التي تنبت في الأرض وجعلوا بعضها دليلاً على كثرة وجود الماء فيها، و إذا رأيت في الأرض شجراً عظيماً برياً لم يغرسه أحد فهي أرض جيدة، وإن أنبتت الشوك والغرائب وشجرها صفار فليست بخالصة، وإذا رأيت شجر الحلفاء والعليق والبطم والحماض والعوسج الصغير ولسان الثور والبابونج وغيرها فاعلم أن ذلك دليل على كثرة الماء في باطن الأرض.

أما أفضل أماكن الأرض للبناء فهي تلك التي تحمي أهلها من جميع المؤثرات الخارجية كالأمطار والرياح والحيوانات السامة، والميكروبات الدقيقة، ولذلك فإنك ترى أسلافنا من علماء الطب المسلمين كانوا إذا أرادوا ان يبنوا مستشفى وزعوا عدداً من قطع اللحم في مناطق مختلفة، وينتظرون حتى إذا عرفوا آخرها فساداً، اختاروا مكانها لكونه أفضل بيئة تبتعد عنها الميكروبات والحشرات والأمراض التي يمكن ان تؤثر على الإنسان من قريب او بعيد، وقد قيل ان أفضل مكان للبناء هو المشرف من الأرض كالتل ونحوه، لئلا تتلفها المياه، ولا يظهر فيها الندى، وليشرف منها ساكنها على أهل القرية وزروعها وبساتينها ولتكن إن أمكن- على شاطىء نهر مستقبلة ريح الشمال والشرق، حتى تدخل منها الشمس من أبوابها والكوى التي فيها، لأن الرياح الشرقية أصح من الغربية، وسخونة الشمس وحرارتها تنفي عن أهلها الأسقام من الهواء ويبوسته والثقال الذي يصيب الناس في أبدانهم ولا تجعل البيوت

ضيقة ولا قصيرة السموك مغمومة، ولا هي طويلة الأبواب يخترقها الريح، فإن ذلك أخف للأبدان وأنقى للأسقام[14]. وإذا كانت الأرض تمثل هذا الحيز الكبير من حياة الإنسان فإن من الواجب على الناس ان يحسنوا خلافة الله لهم فيها، ولا يمكن ان يكون ذلك إلا بالتعاون الذي يفرض على كل واحد منهم أن يقدم ما أتاه الله من أجل الحفاظ عليها وصيانتها واستمرار عطائها مسخراً لذلك ماله وعقله وعلمه وإمكاناته باعتبار ذلك مصلحة من مصالح الأمة التي لا يجوز التقصير فيها بحال من الأحوال، إذ ان اعتبارها منطلقاً يترتب عليه التوزيع العادل المتساوي لما تتطلبه العمارة من الجهد وما تقتضيه من التعاون الصادق الخالص من شوائب الأنانية والمخاتلة والخداع والتغرير، في حين ان اعتبارها هدفاً يترتب عليه تلقائياً تجانس المشاعر والتقديرات تجانساً ينعكس على تكافل الجهود وتكاملها، لأن شعور العامل بأن عمله يشمله ويشمل غيره، كما أنه مشمول بعمل غيره، ينأى به عن كل ما من شأنه ان يحفزه الى التقصير وإلى المداورة والتهرب، بل ومحاولة الموازنة بين عمله وعمل غيره، فالجميع صدره مستفيض وهو يبذل ما يبذل من جهد لكونه يعمل لمصلحته باعتبارها جزءاً من مصلحة غيره[15].

ويجب لتحقيق هذه المصلحة ودوام فعاليتها ان نقطع السبيل على كل ظان بأن ما بين يديه من الأراضي والأموال طريق الى ظلم الناس والوصول الى أهدافه وغاياته حتى وإن كان ذلك على أشلاء الآخرين، فمنع الظالم عن ظلمه على ما يبدو له مصلحة خاصة ومعتبرة، هو من صميم طبيعة الخلافة في الأرض، حيث نحمي بذلك حقوق الآخرين الذين هم أكثر عدداً من ذلك

المتسلط الجبار، وهو بحد ذاته طريق السلامة والكفيل بنمو وازدهار الدولة المسلمة في جميع نواحيها المادية والسياسية والاجتماعية وبمعنى آخر لا بد ان تكون الخلافة في الأرض صمام الأمان لا طريق الظلم والعدوان، لأن الأرض فيها محيانا ومماتنا وبعثنا ونشورنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ولكننا في هذه الحياة لا يمكن لنا بحال من الأحوال ان نعيش بغير الأرض ولا ان تقوم لنا قائمة، او تبنى لنا دولة بغيرها أيضاً.

ولو حاولنا أن نستقرىء ما في الأرض من المنافع لما وسعنا إلا أن نأخذ بما ذكره الإمام الرازي في تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً﴾ الآية حيث قال: «(المسألة الخامسة)، في سائر منافع الأرض وصفاتها:

الأولى: الأشياء المتولدة فيها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية والسفلية، لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى.

الثانية: أن يتخمر الرطب بها فيحصل التماسك في أبدان المركبات.

الثالثة: اختلاف بقاع الأرض، فمنها ارض رخوة، وصلبة، ورملة، وسبخة، وحرة، وهي قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ وقال: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾.

الرابعة: اختلاف ألوانها فأحمر، وأبيض، وأسود، ورمادي اللون وأغبر، على ما قال تعالى: ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾.

الخامسة: انصداعها بالنبات، قال تعالى: ﴿والأرض ذات الصدع﴾.

السادسة: كونها خازنة للماء المنزل من السماء وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكنّاه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ وقوله: ﴿قل أرأيتم أن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾.

السابعة: العيون والأنهار العظام التي فيها وإليه الإشارة بقوله: ﴿وجعل فيها رواسي وأنهارا﴾.

الثامنة: ما فيها من المعادن والغازات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقيننا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ ثم بين بعد ذلك تمام البيان فقال: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

التاسعة: الخبء الذي تخرجه الأرض من الحب والنوى قال تعالى: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ وقال: ﴿يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾، ثم أن الأرض لها طبع الكرم لأنك تدفع إليها حبة، وهي تردها عليك سبعمائة: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾.

العاشرة: حياتها بعد موتها قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا﴾، وقال: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون﴾.

الحادية عشر: ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق، وإليه الإشارة بقوله: ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة﴾.

والثانية عشر: ما فيها من النبات المختلف ألوانه وأنواعه ومنافعه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها قوت البهائم، كما قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أما مطعوم البشر فمنها الطعام، ومنها الأدام، ومنها الدواء ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة، قال تعالى: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ وأيضاً فمنها كسوة البشر، لأن الكسوة التي بثها الله تعالى في الأرض، فالمطعوم من الأرض، والملبوس من الأرض، ثم قال: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى. ثم أنه سبحانه جعل الأرض ساترة لقبائحك بعد مماتك، فقال: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتا، منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾.

ثم أنه سبحانه وتعالى جمع هذه المنافع العظيمة للسماء والأرض فقال: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض﴾.

الثالثة عشر: ما فيها من الأحجار المختلفة، ففي صغارها ما يصلح للزينة فتجعل فصوصها للخواتم وفي كبارها ما يتخذ للأبنية، فانظر إلى الحجر الذي تستخرج النار منه مع كثرته، وانظر إلى الياقوت الأحمر مع

عزته. ثم انظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير، وقلة النفع بهذا الشريف.

الرابعة عشر: ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة، كالذهب والفضة، ثم تأمل فإن البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة واستخرجوا السمكة من قعر البحر، واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن ايجاد الذهب والفضة، والسبب فيه أنه لا فائدة من وجودهما إلا الثمنية، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة فالقادر على ايجادهما يبطل هذه الحكمة، فلذلك ضرب الله دونهما باباً مسدوداً إظهاراً لهذه الحكمة وإبقاء لهذه النعمة، ولذلك فإن ما لا مضرة على الخلق فيه مكنهم منه فصاروا متمكنين من اتخاذ الشبه من النحاس والزجاج من الرمل، واذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب اضطر في افتقار هذه التدابير إلى صانع حكيم مقتدر عليم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الخامسة عشرة: كثرة ما يوجد على الجبال والأراضي من الأشجار التي تصلح للبناء والسقف، ثم الحطب. وما أشد الحاجة إليه في الخبز والطبخ، قد نبه الله تعالى على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها ويعجز عنها الفصحاء فقال: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ وأما الأنهار فمنها العظيمة كالنيل وسيحون، وجيحون، والفرات، ومنها الصغار، وهي كثيرة وكلها تحمل مياها عذبة للسقي والزراعة وسائر الفوائد[16].

وبالنظر إلى ما سلف ذكره، فقد احتاط الصحابة الكرام والعقلاء الذين

جاءوا بعدهم في هجراتهم وأماكن سكناهم من غير أوطانهم، مما يرشد إلى أنهم كانوا يحسبون للبيئة حساباً، ويرفعون لها شأناً، ويحدثنا المسعودي في مروجه عن فاروق الأمة أنه كتب إلى حكيم من حكماء العصر فقال له: إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمطار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في سكناها، فكتب إليه ذلك الحكيم: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فما تناهى في التشريق ولجج في المطلع السائح منه النور، فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته واحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضر بسكانه لموازنة ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضر ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال وأخذ بحظه من حسن القسمة. وسأصف لك يا أمير المؤمنين القطع المسكونة من الأرض... فوصف له كلاً من الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب وخراسان وفارس والجزيرة والهند والصين حتى اذا وصل إلى العراق قال: «وأما العراق فمنار الشرق، وسرة الأرض وقلبها، إليه تحاورت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم، واحتدت خواطرهم، واتصلت مسراتهم فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم وثبتت بصائرهم، وقلب الأرض العراق وهو المجتبى من قديم الزمان وهو مفتاح الشرق، ومسلك النور ومسرح العينين، ومدنه المدائن وما والاها، ولأهله أعدل الألوان وأنقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع

القرائح، وفيهم جوامع الفضائل، وفوائد المبرات، وفضائله كثيرة، لصفاء جوهره، وطيب نسيمه، واعتدال تربته، واغراق الماء عليه ورفاهية العيش به[17]. ويؤيد هذا ما ذكره كعب الأحبار لسيدنا عمر بن الخطاب حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم، حين سأله عن العراق فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء، فقال العقل، أنا لاحق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك، فقال المال: وأنا لاحق بالشام، فقالت الفتن: وأنا معك فقال الخصب وأنا لاحق بمصر فقال الذل: وأنا معك، فقال الفقر: وأنا لاحق بالحجاز، فقالت القناعة: وأنا معك، فقال الشقاء وأنا لاحق بالبوادي، فقالت الصحة، وأنا معك[18].

ومن هنا يتبين لك كيف كان تأثير الأرض في ساكنيها من حيث الفهم والدهاء والحكمة والغنى والذل والقناعة والصحة والمرض، وهي جميعاً ناتجة عن بيئة الإنسان التي تسبر غوره وتكون شخصيته، وقد بينت الدراسات الميدانية التي ذكرها الأوائل في كتبهم مدى تفهمهم لموضوع البيئة وأثرها في تكوين الفكر الاجتماعي، والنمط الشخصي الذي يمكن أن يتحكم في أفراد منطقة أو أسلوب حياة.

ولا شك أن المبادىء الإسلامية والشرائع الربانية قد عالجت هذا الأمر، ولم تسمح بأي صورة من الصور أن تبقى الأرض خربة أو أن تكون مصدر إزعاج بدلاً من كونها مصدر رزق واطمئنان فقد ثبت في الحديث الصحيح قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طائر أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[19].

وبذلك يكون الغرس والزرع الذي هو إعمار للارض طريقاً لرضى الله عزّ وجلّ ونيل ثوابه في الدنيا والآخرة فهو حين يزرع أو يغرس في عبادة ينال ثوابها وأجرها، ومن هنا اشتهر الأنصار وأهل مكة بالزراعة لجودة الاراضي ووجود الإمكانات والخيرات وفق ما تنتجه كل ارض من الأرضين. ويكفي لتأكيد هذا المعنى أن تعرف بأن الأرض غير المستعمرة تسمى مواتاً، وأن إحياءها طريق لتملكها لما ورد في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له ولعقبه»[20].

وقد عرّف ابن حزم الأحياء وشرحه بما لا يدع مجالاً للشك في أنه نوع من أنواع المحافظة على البيئة وعلى الأرض التي هي أهم عناصرها ومكوناتها، فقال في المحلى والأحياء هو قلع ما فيها من عشب أو شجر أو نبات بنية الأحياء لا بنية أخذ العشب والاحتطاب فقط، أو جلب ماء إليها من نهر أو من عين، أو حفر بئر فيها لسقيها منه، أو حرثها أو غرسها، أو ما يقوم مقام التزبيل من نقل تراب إليها، أو رمل أو قلع حجارة، أو جرف تراب عن وجهها حتى يمكن بذلك حرثها، أو غرسها، أو أن يختط عليها بحظير للبناء، فهذا كله إحياء في لغة العرب التي خاطبنا الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم[21].

ونظراً لما لإعمار الأرض من مكانة في الاسلام وفي المحافظة على البيئة بصورة عامة، فإن الحكم الشرعي لا يمانع من أن تبقى الأرض المفتوحة في أيدي أصحابها على جزء من الخارج منها، كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع أهل خيبر حيث أعطاهم إياها على أن يعمولها ويزرعوها ولهم

شطر ما يخرج منها وكذلك فعل الصحابة الكرام من بعده في أرض الخراج التي افتتحها المسلمون عنوة ورفض ابن الخطاب قسمتها على المسلمين وأبقاها في أيدي أصحابها، وشرط ذلك كما هو معلوم شرعاً أن يكون الزرع أو الغرس مما لا يضر ولا يؤذي، فإن كان كذلك فهو إفساد لا إعمار، وقد جعل الله عزّ وجلّ إهلاك الحرث نوعاً من الإفساد الذي لا يحبه ولا يحب صاحبه قال سبحانه وتعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾، (البقرة، آية205).

وقد ذكر الله عزّ وجلّ الحرث الذي هو طريق الأعمار لما فيه من الزرع والغرس وقتل الأعشاب الضارة أكثر من ثلاث عشرة مرة في كتابه الكريم وهذه إشارة صريحة إلى أن ما تقوم به بعض الدول اليوم من زراعة للحشيش أو الأفيون أو أي نباتات أو أشجار ضارة هو نوع من قبيل الإفساد الذي نهى الله عنه لكونه ملوثاً للبيئة الطبيعية التي خلقها الله عزّ وجلّ على أحسن هيأة، حيث حدد فيها ما ينفع الناس وما لا ينفع، وأشار إلى أن ما ينفع الناس يمكث في الأرض وأما ما لا ينفعهم فيذهب جفاء.

ب- التلوث الأرضي

قبل أن نبدأ في ذكر الملوثات الأرضية التي تخرجها عن الوضع الطبيعي الذي خلقها الله عليه وفق ما ذكرنا من قبل فإنه لا بد لنا من الإشارة إلى العلاقة بين الاستعداد البشري واتخاذ الإمكانات المتاحة وبين استعمار الأرض الذي بدونه لا يمكن أن يصلح الناس أو أن تتمكن لهم الأمور في الحياة الدنيا والآخرة وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في الآية الخامسة بعد المئة من سورة الأنبياء حين قال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. فمن هم أولئك الوارثون؟ إن من العجب أن يذهب المفسرون في معنى الأرض إلى كونها ارض الجنة، مع أن ذلك لا يتناسب بحال من الأحوال مع التذييل الذي اختتمت به الآية الكريمة، حيث لا يمكن أن يكون الاعتبار في الجنة وإنما هو من متطلبات الحياة الدنيا ومترتب على الميراث الذي ينبني على الصلاح.

وليس هذا بأعجب من أن يفسر العباد بأنهم هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام[22]. وذلك لمخالفته للواقع المشاهد أو السنة الكونية القائمة، والتي تظهر أن الأرض يرثها المؤمن والكافر، مما يحتم علينا أن نبحث عن معنى الصلاح المقصود في الآية والذي هو سبب لوراثة الأرض في هذه الحياة الدنيا.

إن أول ما يلفت انتباه المتفحص في سياق الآية الواردة هو كونها وردت بعد مجموعة من الآيات التي تتحدث عن أخبار الأمم السابقة، التي امتحنت وابتليت بأنواع شتى من البلاءات التي كان لها أثر كبير في تحديد هديها وتطور

حياتها في البقعة التي كانت تعيش فيها مما يشعر بأن العمل والإيمان أمران مختلفان إما أن يجتمعا وإما أن يتفرقا وفي كل حالة من الحالتين يتغير الحكم وتتأثر البيئة إيجاباً أو سلباً، وإن الصلاح الوارد في الآية ليس بمعنى التقوى، حيث دلالة كلمة (صلح) ومشتقاتها في كثير من الآيات تدل على إزالة الفساد المتصل بأحداث الخلل في المجتمع، سواء كان الخلل في المال أو في الإنسان أو في غيرهما مما يتصل بالحياة الاجتماعية أو بمعنى الإسهام في عمارة الأرض وتطور الحياة البشرية عليها، أو ما نسميه اليوم بالإنماء الاقتصادي وتطوير الحضارة، وهذان الأمران الإقلاع عن الفساد أو الإسهام في التطوير الحضاري، هما الأصلاح المؤهل لخلافة الله في الأرض وارثها الذي هو أرث التصرف فيها وتصريف نتاجها[23].

وعلى هذا يكون المعنى فيه بشارة بأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون وقد وجهت إلى قوم يعانون من الذلة والهوان لتعيد إليهم الأمل وتدعوهم إلى الاستعداد بابتغاء المؤهلات التي تجعهلم صالحين لخلافة الله في الأرض، بإعمارها مؤهلين لإرثها بصلاحهم له[24]، وعلى التحقيق فإن الصلاح الوارد في القرآن الكريم غالباً ما يرد في مقابلة الفساد الذي هو بحد ذاته اكثر الأعراض الطارئة التي تلوث الأرض وتجعل منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت زرعاً، يقول رب العزة على لسان موسى في خطابه لأخيه ﴿وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾[25]. وقال أيضاً في آية أخرى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[26]. وعلى هذا فإن الصلاح الوارد في

الآية لا يجوز أن يكون وصفاً للعباد على وجه التحديد، لأن في ذلك تكذيباً للنص القرآني اذا ما قارنا ذلك بواقعنا المعاصر، وليس معنى هذا انه لا ينطبق على من اتصف بالصلاح من العباد، اذا كان قد اتخذ أسباب الصلاح في الأرض فعمرها وتحرى جميع الوسائل والأساليب الموصلة إلى ذلك، وكأن رب العزة يقول لعباده: أنني جعلت وراثة الأرض للذين يصلحون لأعمارها ولا مانع أن يكونوا صالحين في قلوبهم أو غير صالحين، بينما الأرض لا بد لها من القادر المؤهل الذي يتلمس الأسباب ولا يرضى بالذل والهوان، فيكون التقدير على ذلك الصالحون لإعمارها من مسلمين وغير مسلمين وبذلك تربط الآية بين صلاح البيئة وصلاح الأرض وتجعل من خرابها خراباً عاماً في جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغير ذلك من المجالات ذات الاهتمام الإنساني المتعلقة بالرقي والتطور، الجالب للطمأنينة والرفعة وغير ذلك من المجالات ذات الاهتمام الإنساني المتعلقة بالرقي والتطور، الجالب للطمأنينة والرفعة وقد روى لنا التاريخ أن جورج واشنطن كان ينسب كل مواهبه وانتصاراته إلى الأرض، فيقول: «أنها المواهب المتواضعة التي أكسبتني إياها الطبيعة، فمن الأرض التي ارتبطت بها وعشت فوق ترابها، أنثر البذور وانتظر حتى تنمو وتكبر ثم تثمر، من هذه الأرض تعلمت أعظم صفات يمكن أن يتحلى بها الإنسان، إنني مدين للارض في كل ما حققت من نجاح من أجل بلادي»[27].

ولو رجعنا إلى المعاجم اللغوية للتعرف على معنى التلوث والفساد لوجدنا تقارباً وتشابهاً كبيراً بين الأمرين، فالتلوث يأتي بمعنى الشر والبطء في

الأمر والحمق والجنون والاختلاط والاختلاف والالتفاف والتلطيخ ومنه لوث ثيابه بالطين إن لطخها ولوث الماء كدره[28]. بينما الفساد يأتي بمعنى البطلان والاضمحلال والتغيير وأخذ المال ظلماً وقطع الأرحام. يقول الزمخشري في أساس البلاغة: «يقال ما دأبه غير الفساد في دينه، وهذا الأمر مفسدة له أي فيه فساده، وهم من المفاسد دون المصالح، وتقول: من كثرت مسافده كثرت مفاسده، والأمير يستفسد رعيته، وقد تمادى في استفسادهم، وفلان يفاسد رهطه، وقد تفاسدوا[29]. وذكر صاحب المصباح المنير أن الفساد للحيوان أسرع منه إلى النبات والى النبات أسرع منه إلى الجماد، لأن الرطوبة في الحيوان أكثر من الرطوبة في النبات، وقد يعرض للطبيعة عارض فتعجز الحرارة بسببه عن جريانها في المجاري الطبيعية الدافعة لعوارض العفونة فتكون العفونة بالحيوان أشد تثبتاً منها بالنبات، فيسرع إليه الفساد، فهذه هي الحكمة التي قال الفقهاء لأجلها: يقدم ما يتسارع إليه الفساد، فيبدأ ببيع الحيوان، والمفسدة خلاف المصلحة والجمع المفاسد»[30].

ويلاحظ من خلال ما سبق أن الفساد هو من الملوثات الأرضية التي يجب تحاشيها والابتعاد عنها، نظراً لما تحمله من مفاسد وحماقات واختلافات وشرور توصل في النهاية إلى التعاسة والشقاء وذلك على خلاف ما أراد الله وأوجده في الأرض من السنن الكونية الثابتة.

وقد ورد الفعل فسد في القرآن الكريم مع مشتقاته ما يقارب خمسين مرة، وجميعها تتفق في كونها من الأمور المنهى عنها لكونها لا تحقق عدلاً ولا توجد طمأنينة، وإنما تقلب الموازين رأساً على عقب، وهذا ما يجعلنا

ندرك طبيعة الخاتمة التي توعد الله بها هذه الفئة على فسادها وإفسادها، حيث أن الإنسان يمكن أن يكون فاسداً بنفسه، ويمكن أن يعمل على إفساد غيره معه وهذا أشد وأجرأ على محاربة الصلاح البيئي من أي شخص آخر.

ومن هذا المنطلق كان قول الملائكة لرب العزّة بعد أن أخبرهم بأنه جاعل في هذه الأرض خليفة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾[31].

ولو تتبعنا أنواع الفساد وأساليبه التي ذمها القرآن لوجدناها موجودة غالباً في الأمور التالية كما هو في تصوري واعتقادي:

أولاً: الشرك بالله والتولي عما قررته الشرائع السماوية من المبادىء والأخلاق والتصورات وتعتبر الشريعة الإسلامية هذا العنصر من أكبر عناصر الإفساد البيئي، لكون المشرك بالله أو الكافر به لا يقر ولا يعترف بمهندس الكون الذي أوجد فيه كل أسباب السعادة للانسان إذا ما اتبع أوامره وابتعد عن نواهيه، كما أنه يعمل من خلال ذلك بدافع الرغبة والهوى على تحقيق مصالحه بغض النظر عن المصلحة العامة أو نظام التكامل والتضامن الذي يخدم أكبر شريحة من الناس وفي مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وقد قال الله عزّ وجلّ معبراً عن هذا المعنى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث﴾[32].

وقال أيضا بصيغة الجمع: ﴿فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض﴾[33]، ويتفرع من هذا المعنى شعور الإنسان بعظمة نفسه بحيث لا

يرى فوقه أحداً فيتصرف في هذه الدنيا وكأنه مالكها وربها الذي لا يسأل عما يفعل، وهذا ما عبرت عنه ملكه سبأ حين تكلم الله عزّ وجلّ بلسانها فقال: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾[34].

فالكفر والشرك والتولي وادعاء الملك هي من المفسدات البيئية التي تندرج ضمن أفحش الملوثات التي يجب القضاء عليها بلا هوادة ولا تقاعس، لأنها جميعاً لا يمكن أن تسوق إلى العدل وإنما تجلب الظلم، ألم تر بأن الله عزّ وجلّ سمّى الشرك بالظلم العظيم في قوله على لسان لقمان لابنه: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم﴾[35]. وذكر ابن العربي أن أصل الفساد في لغة العرب زوال المنفعة قال تعالى: ﴿لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا﴾ أي لعدم تحقق المقصود، قال: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي الشرك وإذاية الناس وقد ورد الفساد بمعنى الزنا والسرقة والقتل قاله مجاهد، وقال الشافعي الفساد المجاهرة بقطع الطريق، والمكابرة باللصوصية في المصر وغيره، وقاله مالك، وقال أبو حنيفة هو المجاهرة بقطع الطريق خارج المصر[36].

ولما كان الإشراك بالله موتاً للقلب الذي هو ملك بين الأعضاء، تسلم بسلامته من الأمراض الملوثة كالحقد والحسد والغل، والبخل والسخرية والرياء، وعدم الرضا بالمقدور وغيرها من الأمراض السارية في مجتمعات اليوم، فإن النتيجة التي نجنيها من هذه الذنوب والمعاصي هو ما نلاحظه من إحداثات جديدة في البر والبحر والجو، حيث فسدت المياه والزرع والثمار والمساكن وذلك ما أشار إليه ربّ العزّة حين قال: ﴿ظهر الفساد في البر

والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[37]. قال الفخر الرازي: «وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك، لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس»[38].

والمقصود بالفساد في البر: الحروب والغارات والجيوش والطيارات أو الجدب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم.

أما فساد البحر: فهو قلة مياه العيون أو بالسفن الحربية والطوربيدات والغواصات أو غير ذلك مما كسبت أيدي الناس الذين أفسدوا وغيروا وحولوا كثيراً من الأمور عن واقعها الصالح إلى حالها الضار فأخرجوا الأمور عن استقامتها وحالها السوي بما أدخلوا فيها من مصبات للمجاري وقتل كثير من الأسماك، وتلويث المياه العذبة النقية وسيطرة لم يسبق لها مثيل على الأرض الزراعية التي أصبحت مكاناً للبناء فعطلوها وحرموا أنفسهم من لقمة العيش التي كانت تفيض بها الأرض في كل عام ومع كل صنف ونوع، ولا شك في أن العقائد عليها مدار الأعمال فمتى حسن الاعتقاد حسن العمل وحسنت نتيجته، ومتى ساء الاعتقاد ساء العمل وساءت نتيجته، لأن من لم ينظر الخير لنفسه فإنه لن ينظر لما فيه خير الناس، ولذلك نرى الفساق والعصاة والكفار يقدمون على الأعمال الرذيلة الفاحشة، فيشربون الخمر، ويهتكون الأعراض، ولا يرعون يتيماً أو ضعيفاً، مصداقاً لقوله سبحانه في سورة

الماعون: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾. هؤلاء هم أنفسهم الذين تسألهم الملائكة والناس يوم القيامة حين يدخلون جهنم والعياذ بالله عن السبب في هذا العذاب، فيقولون بكل صراحة ووضوح: ﴿قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين﴾[39].

هذا على المستوى الشخصي، أما على المستوى الجماعي فإنه ما ظهر الفساد والزندقة في بلد من البلاد إلا وسلط الله عليهم الآيات تخويفاً وإنذاراً، وإذا ما أنزل عليهم العذاب، فإنه لن يكون خاصاً وإنما هو عام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[40].

فالظلم كيفما كان معناه إنما هو من أكبر الملوثات البيئية التي تخضع لها رقاب العباد، وتئن تحت وطأتها الأرض بما فيها من أمصار وبلاد، فأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الاثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[41].

ثانياً: عدم دفع الناس بعضهم بعضاً وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[42].

وقد اختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد فأوردوا في ذلك أحاديث ضعيفة حول الإبدال الذين هم أقوام من أمة محمد عليه الصلاة والسلام لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب، وتواضع في غير مذلة. وقال سفيان الثوري: هم الشهود الذين تستخرج بهم الحقوق، وحكى مكي أن أكثر المفسرين على أن المعنى، لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم، وقال سائر المفسرين: ولولا دفع الله بالمؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض أي هلكت[43]. وقال ابن عطية: وفي هذه القصة بجملتها مثال عظيم للمؤمنين ومعتبر، وقد كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم معدين لحرب الكفار، فلهم في هذه المنازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس والثقة بالله وغير ذلك من وجوه العبرة[44].

وقال صاحب مختصر منهاج القاصدين: اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوى بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد وخربت الأرض[45].

وهذه النتيجة هي التي جعلت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم العوامل لإصلاح البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لما يحمله من

تقويم سليم يرفع سوية التصرفات إلى ما فيه خير الفرد والجماعة، ولا يسمح للشر بأن يستشري وأن يتمالأ أصحابه على النيل من التقوى والصلاح ممثلاً ذلك في محاربة أهله والداعين له، وقد أدرك المسلمون الأوائل هذه المعاني فجندوا لها أفضل الرجال وأقدرهم على القيام بهذه المهمات، ممن عرفوا باسم المحتسب في التاريخ الإسلامي العريق، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يعين عمر بن الخطاب قاضياً زمن خلافته فمضى عليه سنة دون أن يأتيه متخاصمان، فقدم استقالته لما وجده من الالتزام الدقيق عند الناس بما لهم وما عليهم، فما احتاجوا إلى عمر ولا إلى غيره.

ولما كانت طبيعة الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر تقوم على أساس نظرة اجتماعية متكاملة ليس فيها للأنانية أو الاستئثار نصيب، فإننا نجد أبا بكر رضي الله عنه يقوم يوماً في الناس فيحمد الله ويقول: أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب[46].

وسئل أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن الآية السابقة فقال لسائله: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شيخاً مطاعاً به وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام المصير، والصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله، والله تعالى

يقول: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾(47).

ومن المعلوم أنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة، وأن للمنكرات ثمرات، وللمعاصي عقوبات: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ وقد قص الله علينا خبر الأمم المعذبين قبلنا فقال: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(48).

وهنا تظهر عظمة الخالق الذي أوجد الخير والشر بين الناس، ليكون لكل واحد من الأفراد دوره الذي يتناسب مع مسؤولياته، ويكون للحاكم دور يتناسب مع موقعه ومركزه، وقد أشارت الفلسفة الإسلامية إلى الوسائل الكونية التي خلقها الله عزّ وجلّ وسلّط أيدي العباد عليها على أنها لا توصف لذاتها بأنها خير أو بأنها شر وإنما هي وسائل يمكن أن يستعملها الإنسان كيف شاء بمعنى أن الاستعمال الإنساني هو الذي يوجهها نحو الخير أو نحو الشر، ولكن الإسلام لم ينس الدور العظيم الذي يقع على عاتق الخليفة أو السلطان في الصلاح البيئي أو فساده.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفى عليه أن المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية أو فسادها، إنما هي مسألة زعامة لشون البشرية ومن بيده

زمام أمرها، وذلك كما نشاهد في القطار، أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقة، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً أو كرهاً- إلى تلك الجهة نفسها فإذا كانت هذه السلطة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله واتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب السياسية والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها(49).

وأوضح لنا هذا النص إضافة إلى ما ذكرنا من قبل العلاقة الوطيدة التي تربط بين القيادة وبين الدين، وضرورة تحلي القائد بالمثل والفضائل التي تضفي على حياته وحياة الآخرين صورة مشرقة من الحياة الطيبة والراحة النفسية التي يمكن أن يحظى بها الحاكم الجائر الذي لا يهمه إلا مصالحه الشخصية وإشباع رغباته ونزواته، وإن كلف ذلك بيع الأوطان والمواطنين بثمن بخس لا يرضاه لبعض ما يقتنيه من الدواب والدواجن وقد تساءل مونتجمري هل من علاقة للدين بالقيادة؟ ثم يجيب على تساؤله بالقول: لا يستهوي القائد الكثير من الناس أن لم يتحل بالفضائل الدينية، ثم يضيف على أنني اعتقد بأن الاستعانة في القضايا المعنوية الكبرى وفي الفضائل الدينية أمر ضروري لنجاح القائد(50).

وإذا ما استطاع المجتمع أن يوجد القائد الصالح والمجتمع الصالح فقد تحققت له السعادة الدنيوية والأخروية وهي (سعادة الدارين) في التعبير الإسلامي.

وإن أحوج ما يكون القائد إلى من يساعده على إرساء قواعد العدل والمساواة والاستقامة من الوزراء والقادة والعمال والأعوان، وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أراد الله لعبد خيراً- أو قال بالأمير خيراً- جعل له وزير صدق أن ذكر أعانه، وإن نسي ذكره، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء أن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه»(51).

ومن هنا فقد كانت نظرية الدفاع الاجتماعي في الإسلام من أنجع النظريات التي عرفها التاريخ في تضميد الجراح، وإزالة الفساد، ومقاومة التلوث البيئي على مختلف مستوياته، وكافة نواحيه، فقد حرص القرآن على إنشاء أمة ذات دور قيادي للبشرية جمعاء، تقوم بدور غير مسبوق ولا ملحوق، تضع فيه القواعد في هذه الحياة فلا يتعداها أحد إلا إذا أراد بنفسه ومجتمعه الهلاك والفساد، ولا تختلف مهمة الداعية في المجتمع المسلم عن مهمة الأمة المسلمة تجاه البشرية جمعاء، لأن كل واحد منهما يعتبر الطبيب المداوي الذي باستطاعته أن يتعرف على مواطن الألم وأن يصف الدواء الشافي، فيقوم المعوج، ويخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، وذلك هو سر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحفاظ على المجتمع المسلم خالياً من الأمراض التي غزت وتغزو كثيراً من الدول التي تعرف هذا السبيل من الوقاية الاجتماعية والمحافظة على البيئة بكل ما في الكلمة من معنى، وقد كان الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام النبي القائد الذي استطاع عقله أن يتصور وأن يوجد خلال فترة وجيزة وحدة كاملة في جميع جوانب الحياة، وأن يجعلها

واقعاً ملموساً يعيشه الناس، هذا مع الإشارة إلى أن هذا لم يكن خاصاً لشخص الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما كان بفضل المبادىء والتشريعات الربانية التي جاءت في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكم هم على خطأ اولئك الذين يدعون إلى التفلت وعدم وضع ضوابط وحدود للحرية والتسيب الذي غالباً ما تعم بلواه ولا تقف عند حدود مرتكبيه والداعين إليه، وأكبر شاهد على ذلك ما نشاهده اليوم في عواصمنا ومدننا وقرانا من الاغتيالات والقتل والسلب والنهب، بحيث أصبح المرء لا يشعر بالأمان لا في البيت ولا في المكتب ولا حتى في الشارع العام، ونحن كما يقولون في عصر الحضارة والمدنية والتقدم التكنولوجي، والديمقراطية التي أفرزت لنا خوفاً وفقراً وحروباً لا تهدأ وأفكاراً لا تسمن ولا تغني من جوع، لأنها جميعاً ظواهر لا حقيقة لها عند القادة والمتمكنين، فلم تصل بمستواها الخدمي والبيئي إلى القولة المشهورة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما وقف خطيباً بالمسلمين بعد أن استلم إمارتهم: «يا أيها الناس: قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى»(52).

وقد كانت نتائج هذه العدالة فتوحاً وأموالاً وأماناً واستقراراً لم يعرف له التاريخ مثيلاً لا من قبل ولا من بعد، حيث لم يعرف فيها القادة والمتسلطون على رقاب العباد، أبواب دور السينما ولا البارات ولا صالات القمار ولم يضيعوا أموال الأمة في رحلاتهم وتجوالهم تحت شعار المشاركة في مؤتمرات

أو مباحثات ثنائية، تتمخض في غالبها عن تلاعب في مصائر الأمم والشعوب المغلوب على أمرها، إضافة إلى متاع القلوب الذي يلقاه قادتها في دعواتهم الخداعة باسم الوطنية أو القومية أو الشعوبية أو الديمقراطية، فما رأيت ولا قرأت ولا سمعت وضعاً عبث بالبيئة وبالناس وبكل ما على الأرض من مخلوقات وموجودات أكثر مما أوصلتنا إليه تلك الدعوات الهدامة، والأفكار السامة، والشعارات البراقة الخداعة، التي قادت بعض النابهين أو العقلاء إلى أن يتفلتوا من هذه الأوضاع إما بانتمائهم إلى جمعيات نسبوها إلى الحمير أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات الخسيسة، وإما بإقدامهم على الانتحار الذي أصبح موضة العصر وبخاصة في دول أوروبا وأمريكا ذات التقدم الحضاري والتصور الفكري الرفيع لمعنى الحياة وأساليبها، وطرق التعامل مع من فيها. فكيف بنا وبواقعنا أيها الأخوة إذا كان أمراؤنا لا يعدلون في القضية، ولا يحكمون السوية ولا يتفقدون أحوال الرعية، يقدمون لنا قوانين اليونان والرومان، وينقضون أحكام السنة والقرآن، يؤازرهم في ذلك الصحفيون وأصحاب الفتنة، ويغذون العداوة بين الناس، وينشرون الفاحشة بما يصورونه في جرائدهم من صور خليعة، ورسوم فاتنة، باسم حرية الصحافة وتشجيع الفنون الجميلة، واستثمار السياحة الداخلية، وصدق الشاعر حيث يقول:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

جـ - اللهو والهوى

والأصل في هذين الأمرين هو ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ في أوائل سورة لقمان من قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً، اولئك لهم عذاب مهين﴾ وقوله أيضاً في سورة ص: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾.

ويظهر لنا في الآيتين أن أصحاب اللهو والهوى إنما يصلون في نهاية المطاف إلى نسيان يوم الحساب والعذاب الأليم، والناظر إلى أسباب نزول الآية الأولى يدرك تمام الادراك بأن أكبر ما يمكن أن يؤثر على الإنسان في هذه الحياة، هو الإفتتان بشهوته ونفسه الأمارة بالسوء، وشيطانه المغوي وذلك بالميل إلى زهرة الحياة الدنيا.

فقد ذكر القرطبي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، لأنه اشترى كتب الأعاجم وكان يجلس بمكة فإذا قالت قريش أن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه وأسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه[53]. ولا تعارض بين تفسير لهو الحديث بالغناء وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها.

فكلاهما لهو حديث باطل يبعد عن القرآن ويجعل إنشاء الأبيات أفضل من تلاوة الآيات: «فهذا السماع الشيطاني وكما يقول ابن القيم المضاد

للسماع الرحماني له في الشرع بضعة عشر إسماً، اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء، والتصدية، ورقية الزنا، وقرآن الشيطان، ومنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود»(54).

ومن دقق النظر في هذه جميعاً فإنه يرى أن أصولها تنبع من النساء والغناء والخمور وهي في حد ذاتها مترابطة، كل واحدة منها تدفع إلى الأخرى وتجر إليها.

فالمرأة أما أن تكون بانية مربية وإما أن تكون حبلاً ومصيدة من مصائد الشيطان، ففي الوقت الذي تلتزم فيه بأمر الله حين يقول لها: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها﴾، ولا تخرج من بيتها إلا لحاجة أو ضرورة، فلا تعرف التسكع في الطرقات، ولا خُذ وهات، ولا تنهشها العيون والنظرات وهي بلباسها السافر الفاضح، متمثلة قوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ فإنها تكون لبنة من لبنات البيئة الصالحة التي يستعين بها الرجل في بناء أسرته والنهوض بمجتمعه إلى درجات العز والكرامة والرفعة في الدنيا والآخرة.

الأم مدرسة إذا أعددتها　　　أعددت شعباً طيب الأعراق

فحين كانت نساء المسلمين على مثل هذه الشاكلة التي جعلت من نساء الأنصار حين نزلت أية الحجاب كالغرابيب السود، فإنها استطاعت أن تنجب الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

وقد تنبه أعداء هذه الأمة إلى هذه الآفات التي تفتك بالأخلاق فيكون تدميرها للحياة بصورة أكثر من تدمير الأحياء والبيوت، فكانت توجهاتهم منذ بداية هذا القرن تنصب على إفساد هذه الأمة وإغراقها في الشهوة والخمر، فدعوا إلى تعليم المرأة والنهوض بحقوقها المهضومة في نظرهم وتصوراتهم، داعين إلى تحررها بالسفور وترك الحجاب، ودخولها النوادي مع الرجال الأجانب بلا محرم ولا مراقب وإغراقها في صنوف الفساد من الغناء والرقص والدخول في نوادي السكرتيرات، والانخراط في دعوات الهيبز والبيتلز، والثورة على الأعراف والتقاليد، وممارسة البغاء بالصورة التي تضمن لها حريتها وإشباع نزواتها غير آبهة برقابة المجتمع أو العادات والتقاليد أو تعاليم الأديان، فكانت نتيجة ذلك أن أصبحت المرأة سلعة من سلع التجارة الدولية التي تجعل من الجنس بضاعة رائجة، ورابحة، كما هو الشأن في وقتنا الحاضر في بعض الجمهوريات السوفياتية المستقلة، حيث أشارت كثير من التقارير إلى أن هناك في العالم أكثر من ثلاثين مليون امرأة يمارسن مهنة البغاء الدولي الذي ساعدت عليه الحروب والفقر، وتبناه أصحاب المبادىء والأفكار الهدامة من الصهاينة الذين أخذوا على أنفسهم عهداً بأن يهدموا كل صرح للدين، وأن يحطموا كل واجهة للعفاف والخلق، ومما يندى له الجبين أن تكون نساء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها جزءاً من المؤامرة الدولية التي أغرتها بأن تخلع جلباب حيائها وأن تحرقه أمام بيت المندوب السامي في القاهرة، وأن تطلق اسم ميدان التحرير على ذلك، المكان، افتخاراً واعتزازاً بكونها قد شابهت المرأة الأوروبية ولحقت بها بل وسبقتها دون أن ترى في ذلك غضاضة، فخرجت عارية الرأس والصدر، تبدي يديها إلى الآباط

ورجليها إلى منتصف الساق، وصار ذلك ديدنها الذي تعودته الأعين والأبصار وقلدته الفتيات في كل البقاع والأمصار، فاستمرأت الأمة هذا الفسق والعصيان، فظهر فيها فساد البيئة من أمراض الزهري والأيدز إضافة إلى المسخ الذي حل بالشباب، مما حدا بالزوج أن يحمل زوجته سافرة متبرجة ليضعها بين يدي أصحابه ورفاقه يرمونها بنظرات فاحصة كما تبادلهم ذلك في حفلات راقصة، أو دعوات عامة يختلط فيها الحابل بالنابل، ويباح فيها كل حرام، على مسمع ومرأى من الأزواج والآباء والأمهات، الأمر الذي دفع بالنساء إلى الحرص على رشاقتهن يستمتعن بأنوثتهن وأن يقدمن على تناول الحبوب المانعة للحمل، أو المسقطة للأجنة، فبالله أيها القارىء الكريم أي إفساد للبيئة أكبر من هذا الإفساد، الذي يحرم الولد من حليب أمه وحنانها، ويسلمه إلى خادمة منحطة في أخلاقها وتصرفاتها، غير آبهة بما يصلح المولود ويجعله براً بوالديه صالحاً، وفي خضم هذا البحر من الفساد والإفساد نسي الناس أو تناسوا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[55].

فأي استقرار خلقي ونفسي سيعيشه المجتمع المسلم بصورة خاصة والمجتمع العالمي بصورة عامة تحت وطأة الأفلام الخليعة التي لا تتورع عن الاسفاف والانحطاط إلى درجة تظهر فيها المرأة عارية تمارس الجنس مع الرجال وتختار منهم الذي تحب وتريد، وهي تحتسي مع عاشقها كؤوس الخمر أو حبوب المخدرات التي تفشت بين أبنائنا، وبخاصة بعد أن انتشرت بصورة واسعة شبكات الالتقاط الحديثة التي لا تترك محطة من محطات الدول الأوروبية الماجنة إلا ونقلتها لهم ووضعت كل قبيح بين أيديهم.

ويستطيع المرء أن يدرك العواقب الوخيمة التي ينتظرها المجتمع الدولي كنتيجة حتمية لهذه الإباحية التي أفرزتها المجتمعات الأوروبية والحضارة الغربية وصدرتها إلى دول العالم الفقيرة، من خلال التقارير التي قدمها بعض الخبراء إلى الأمم المتحدة عن صناعة البغاء والاتجار بالأشخاص حيث أشارت إلى أن عمر الفتيات الباغيات في بعض أنحاء البرازيل يتراوح بين 12 -14 سنة فقط وفي أمريكا اللاتينية فإن العاملين بالبغاء المستحسنين أكثر من غيرهم ينبغي أن تتراوح أعمارهم بين 10-14 سنة، أما في هونكنغ وبانكوك فتسلم فتيات صغيرات ما كدن يفطمن لتجار مقابل عشرات من الدولارات ليجدن أنفسهن بعد ذلك بقليل مسجونات مدى الحياة في إحدى بيوت الدعارة(56)، بيما يبين أن بغاء الطفل قد نظم في بعض البلدان الصناعية مؤخراً، فظهر الأدب الإباحي الذي يشمل البومات الصور والأفلام وشرائط تسجيل الفيديو، حيث يصور الأطفال وتؤخذ لهم صور في أوضاع فاحشة. وغالباً ما يتم ذلك عن طريق شبكات دولية متخصصة تقوم بذلك تحت غطاء وكالات زواج أو توظيف كمضيفات أو سكرتيرات.

ومما يظهر شناعة ما وصلت إليه المجتمعات المتحضرة اليوم من الإباحية المطلقة والبغاء المقنن المتنوع الأسباب والأغراض، هو قيام النساء أنفسهن إضافة إلى اتحادات نسائية أخرى بالدعوة إلى أن يكون لجسد المرأة حرمة، وأن تستر الصور الخارجية بملصقات إعلانية أخرى، وذلك كخطوة أولى على طريق سن قانون يعاقب مخالفي تعليماتها، وذلك وفق ما صرحت به وزيرة شؤون المرأة الفرنسية وأيدته اتحادات المرأة الفرنسية والوجودية اليسارية(57).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «ما ظهرت

الفاحشة في قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[58].

وما مرض الأيدز (فقدان المناعة) الذي ينتشر الآن في أمريكا وأوروبا وأفريقيا إلا نتيجة حتمية لهذه الممارسات اللاأخلاقية التي ينادي بها تجار العروض وأتباع الشيطان في كل مكان وزمان، وقد ظهر مرض آخر على غرار مرض الايدز عرف باسم (الهيباتيتس) وهو مرض في الكبد يستشري في الشواذ ومدمني المخدرات وأحياناً المرضى الذين ينقل لهم دم، وينتقل المرض عند الاتصال الجنسي أو عدوى من إبر المخدرات الملوثة[59].

وما أحكم الإسلام في هذا الجانب، فقد سمى العورة سوأة، وخلق آدم عليه السلام وسترها عنه وعن زوجته، وإنما ظهر لهما ذلك بالمعصية، فاستحييا مما رأيا، فذلك موضع حياء أنزل فيه سبحانه قوله: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾ الأعراف آية26، فإذا نظرت إليها فقد نظرت إلى شيء، قد واراه الله باللباس الذي أنزل من أجله، وهتكت ستر الله ولذلك قال سليمان: «لأن أموت ثم أنشر ثم أموت ثم أنشر أحب إلي من أن أرى عورة مسلم أو يرى عورتي»[60]. وفي هذا وغيره من الآثار الواردة في وجوب المحافظة على الفروج إلا على الأزواج أو ما ملكت اليمين إشارة صريحة إلى أنه كلما عظمت المصيبة والمعصية، فإن العورة تزداد انكشافاً والحياء يزداد نقصاناً، وهذا من أعظم المفسدات البيئية التي لا يقتصر أثرها على أشخاصها فيها وإنما يتعداه إلى الحياة العامة والخاصة، حيث يكون أثره سلبياً على العلاقات الزوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبالتالي على الأمة جمعاء نصراً أو هزيمة، وإن مجرد الاختلال الذي يمكن أن يلحق

الأسرة والعلاقات الزوجية والاجتماعية لكفيل وحده بأن يزعزع الأمن والاستقرار الذي هو أساس النهج البيئي الصحيح، والذي تبنى على أساسه آمال المستقبل وأهدافه وتطلعاته.

ولا أخالني في هذه المعالجة استطيع أن أضع بين يديك المفسدات البيئية التي يمكن أن تجلبها المرأة من خلال انحرافها أو عدم التزامها بالأوامر الشرعية، ولكنني استطيع أن أشير إلى ما قررته سورة النور من خلال ما ورد في ثنايا آياتها المحكمات من إشارات تدل على مدى مساهمة المرأة في بناء المجتمع السليم، وما يجب على الرجال من اتباعه لإبعاد المرأة عن مهاوي الردى والسقوط في أوحال الجاهلية العمياء التي وصفها الله بالأولى، والتي تبنتها الحضارة المادية المعاصرة التي رفعت شعار فرويد في التفسير الجنسي للسلوك البشري والذي يقرر فيه بأن الإنسان كله طاقة جنس متحركة تسعى لإثبات الذات عن طريق ممارسة الجنس، وأن التحقيق الأكبر للذات هو الذي يتم عن طريق الجنس، كما رفعت شعار كارل ماركس الذي قرر فيه أن المرأة في المجتمع الصناعي تتحرر لأنها تستقل اقتصادياً عن الرجل فتتحرر من سلطانه فتفقد قضية العفة وأهميتها(61).

وإذا ما أضفنا إلى ذلك ما توصل إليه العلم من أساليب شيطانية لمنع الحمل والمحافظة على جمال المرأة ومظهرها الفتان فأننا نستطيع إدراك الحقيقة الغائبة عن عين الكثير من أبناء أمتنا الذين يلهثون وراء الحضارة الأوروبية دون وعي ولا اعتبار لدواعي الأخلاق والسلوك والدين، ولا حتى لإنسانية الإنسان ورفعته عن باقي الحيوانات العجماء، وقد تطلب هذا وضع التشريعات الوضعية التي صقلت العقول بمفاهيم جديدة بعيدة عن الإيمان بالله

واليوم الآخر، فجعلت من الدولار إلها ومن المصلحة الوطنية والحرية الشخصية والرأي العام، والعقل والقومية الهة يعبدون من دون الله، وصاغت ذلك في نظريات أطلقت عليها اسم (العلمانية) التي تعني في معناها الصحيح اللادينية، على عكس ما يفهمه الإنسان عند قراءته لاسم العلمانية التي عرفتها دائرة المعارف البريطانية بأنها: «حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الاهتمام عن الآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها»(62).

وما من أحد يستطيع الإنكار بأن المرض النفسي وعدم الاستقرار والشعور بالطمأنينة، لهو أكبر الآفات البيئية التي تفتك بكثير من المجتمعات ممثلاً ذلك في كثير من المظاهر التي تأبى قبولها أدنى درجات الإنسانية المتحضرة، ولعل المثير في هذه الظواهر هو أنها تتفشى في المجتمعات المتقدمة أكثر منها في المجتمعات الفقيرة ذات العلاقات الاجتماعية المنبثقة عن الدين والعقيدة، فالانتحار واتخاذ الصواحب والعشقيات من خلال عمل المرأة موظفة أو سكرتيرة أو أي مهنة أخرى عدى مهنة الزوجية هي من أكثر المظاهر التي يشاهدها المرء في الدول الاستكندنافية وأوروبا وأمريكا الجنوبية والشمالية، وهذا بالطبع يترتب عليه انقطاع الصلات العائلية، وكثرة أولاد الزنا، والعزوف عن الزواج الذي هو اللبنة الأولى في أي مجتمع من المجتمعات، ولذلك وجدنا كثيراً من هذه الدول أخذت تضع الحوافز والجوائز للنساء والرجال الذين يمكن لهم التغلب على هذه المظاهر التي ساقت الأمة إلى طريق الاضمحلال والتراجع نظراً لنقص نسبة المواليد وزيادة نسبة الوفيات.

الهوامش

1- التفسير الكبير، الفخر الرازي، جـ22، ص161.

2- سورة النور، آية رقم 55.

3- سورة هود، آية رقم 61.

4- تفسير الكشاف، الزمخشري، جـ2، ص407.

5- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ9، ص56، وانظر تفسير الطبري، جـ15، ص368، وتفسير المنار، جـ12، ص121.

6- الإسلام وانتزاع الملك للصالح العام، محمد الحاج الناصر، مطبعة فضالة، المغرب، 1991، ص14-15.

7- التفسير الكبير، الفخر الرازي، جـ2، ص109-110.

8- نفس المصدر والصفحة.

9- المحلى، ابن حزم، جـ5، ص210.

10- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، جـ8، ص326.

11- وانظر ايضاً تفسير الكشاف، جـ2، ص89. وتفسير الطبري، جـ12، ص316.

12- مروج الذهب، المسعودي، جـ2، ص63-64.

13- نفس المرجع، جـ2، ص66.

14- المقنع في الفلاحة، أحمد بن محمد الاشبيلي، تحقيق صلاح جرار وشريكه، منشورات مجمع اللغة العربية، 1982، ص6-8، بتصرف.

15- الإسلام وانتزاع الملكية للمصلحة العامة، ص453.

16- التفسير الكبير، الفخر الرازي، جـ1، ص104-105.

17- مروج الذهب، المسعودي، جـ2، ص61-63.

18- نفس المرجع، جـ2، ص64-65.

19- صحيح البخاري، جـ3، ص208.

20- شرح السنة، البغوي، جـ6، ص150.

21- المحلى، ابن حزم، جـ5، ص238.

22- انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ6، ص349. والمحلى، لابن حزم، جـ5، ص243.

23- الإسلام وانتزاع الملك للمصلحة العامة، محمد الحاج الناصر، ص482.

24- نفس المرجع، ص480.

25- سورة الأعراف، آية رقم 42.

26- سورة النمل، آية رقم 48.

27- مجلة العربي، العدد188، سنة 1974، ص66.

28- تاج العروس، باب التاء فصل اللام، بتصرف.

29- أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، ط1، مطبعة أولاد اورفاند، 1953، ص314.

30- المصباح المنيز، احمد بن محمد المقري، مصر، ط3، المطبعة الأميرية، سنة 1912، ص724.

31- سورة البقرة، آية رقم 30.

32- سورة البقرة، آية رقم 205.

33- سورة محمد، آية رقم 22.

34- سورة النمل، آية رقم 34.

35- سورة لقمان، آية، رقم 13.

36- الأحكام الصغرى، محمد بن عبدالله بن العربي، الرباط، ط1، الاسيسكو، 1991، جـ1، ص322، 324.

37- سورة الروم، آية رقم، 41.

38- التفسير الكبير، الفخر الرازي، جـ13، ص127.

39- سورة المدثر، آية رقم 42-47.

40- سورة الأنفال، آية رقم 25.

41- الحسبة في الإسلام، ابن تيمية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص82.

42- سورة البقرة، آية رقم 251.

43- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ3، ص260.

44- المحرر الوجيز، ابن عطية الاندلسي، المغرب، مطبعة فضالة، 1975، جـ2، ص269.

45- مختصر منهاج القاصرين، احمد بن قدامة المقدسي، دمشق، المكتب الإسلامي، ط4، 1394هـ، ص120.

46- المرجع نفسه، ص121.

47- إصلاح المجتمع، محمد بن سالم البيحاني، جده دار المجتمع للنشر، ط3، 1992، ص284.

48- الحكم الجامعة، عبدالله بن زيد آل محمود، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية طثالثة، 1991، ص626.

49- التربية الإسلامية في ظلال القرآن، سيد قطب، عمان، دار الأرقم، ط1، 1983، ص304-305.

50- بين العقيدة والقيادة، محمود شيت خطاب، بيروت، دار الفكر، ط1، 1972، ص51، 53.

51- الترغيب والترهيب، المنذري، بلا، جـ4، ص52.

52- حياة الصحابة، محمد الكاندهلوي، دمشق، دار القلم، ط2، 1983، جـ3، ص427 بتصرف.

53- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ14، ص52.

54- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، بيروت، دار المعرفة، جـ1، ص237.

55- سورة الاسراء، آية رقم 16.

56- مجلة الأمة، السنة الثالثة، العدد الثالث والثلاثون، 1983، ص92-93.

57- نفس المرجع، بتصرف.

58- رواه أحمد وابن ماجة.

59- مجلة الأمة، السنة الثالثة، العدد الحادي والثلاثون، ص75.

60- المنهيات، الحكيم الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، ص80.

61- مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، بيروت، دار الشروق، ط1، 1983، ص160 بتصرف.

62- نفس المرجع، ص445.

د - الماء

هو سائل لا لون له ولا طعم ولا رائحة، فإذا ظهر فيه واحد من هذه الثلاثة خرج عن صلاحيته وأصبح ملوثاً غير صالح للشرب واستعمال البشر، وهذا يندرج كذلك على الحيوانات والنباتات، لأنها في النهاية هي غذاء الإنسان، فإذا ما خالطها التلوث فإنه ينمو في داخلها وعبر مراحل وصولها إلى المعدة ويتضاعف من ثمانين إلى مائة ألف ضعف وبخاصة تلك المواد التي يسهل ذوبانها في الماء وامتصاص الأجسام لها.

ولا تقل أهمية الماء للكائنات الحية عن أهمية الهواء التي أشرنا إليها من قبل، وقد قرر ذلك رب العزة في كتابه العزيز حين قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ الأنبياء الآية30. قال بعض العلماء: هو الماء المعروف، لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تخلق من الماء، وإما غير مباشرة، لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة من الماء وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها، لأنه كله ناشيء بسبب الماء.

وقال بعض العلماء: معنى خلقه كل حيوان من ماء أنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه وقلة صبره عنه[1]، وقد أخذ العلماء هذه المعاني من الآيات الواردة في كتاب الله عزّ وجلّ حيث ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾، النور، آية45، وورد قوله أيضاً: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾، الفرقان، آية54.

وفي مصدر الماء الرئيسي رأيان أولهما أنه من الماء المتبخر من البحار والصاعد إلى الأعلى نتيجة ارتفاع درجات الحرارة وثانيهما: أن المطر من السحاب المنحدر من السماء يقول الزمخشري: السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر ويؤيد ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾[2]. وقد ورد ذكر الماء في كتاب الله ما يقرب من ثلاث وستين مرة، وذكر فيه عدة أوصاف للماء النقي الذي تتحقق فيه الحياة التي قررها ربّ العزة له، فذكر صفات الطهور، المبارك، الغدق، الفرات، الثجاجا، وأفضل المياه ماء السماء إذا أخذ من إناء نظيف ثم ما وقع على جبل فاجتمع على صخرة، ثم ماء الغدران العظام المستنقع في الصحارى إذا لم يكن فيه عشب، ثم ماء القني ثم ماء الحوض الكثير العمق، ثم ماء العيون وما ينحدر من الجبال.

والريف هو الماء عند العرب، والنطفة تسمى ماء، والماء يسمى نطفة وقد قيل: أحسن الأشياء، صفو هواء، وعذوبة ماء وخضرة كلأ، وذلك لما فيها من راحة نفسية وجسدية على حد سواء.

والماء النقي البعيد عن جميع الملوثات فيه علاج لكثير من الأمراض التي يمكن أن تصيب الناس بين الحين والآخر، فإذا شربه صاحب السل واليرقان نفعه، وإذا أخذ منه في جام قبل أن يقع إلى الأرض وشربه من أراد الذكاء زاد في ذكائه، وقد ذكر المأمون أن في الماء البارد ثلاث خصال: يلذ ويهضم ويخلص الحمد، ولذلك جعله كثير من العلماء المقصود من قوله تعالى: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ فقالوا: هو الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء[3].

وقال الشاعر العربي مبيناً الأوقات التي يجب أن يتوقى فيها الإنسان الشرب نظراً لما يمكن أن يلحقه من الأذى والألم:

تَوَقْ شرب الماء في خسمة ... فإنها جالبة للسقام

عقيب حمامك والنوم والاعياء ... والباه وأكل الطعام

وقد حرص الإسلام منذ أن سطعت شمسه على المحافظة على الإنسان في طعامه وشرابه ونفسه واطمئنانه، فنهى عن أن يبول الإنسان في الماء أو يتغوط فيه، سواء كان جارياً أو راكداً، وذلك محافظة منه على عنصر أساسي من عناصر البيئة وإبعاداً لهذا العنصر عن كل ما يمكن أن يلوثه ويجعله سبباً في الاذاية ونقل الأمراض والجراثيم إلى أشخاص آخرين لم يكن ليصل إليهم لولا ذلك الماء الملوث، كما نراه نهى المسلم عن استعمال الماء المشمس لما له من تأثير ضار على الجلد، فهو يسبب بياضاً في الجلد يشبه البرص، وقال بعضهم: أنه يسبب البرص، ولا بد لثبوت الكراهة أن يكون التشميس في إناء منطبع أي مصنوع من المعادن كالنحاس والرصاص وغيرها، وعلل بعض العلماء كراهة التشميس من جهة الطب بحدوث التسمم للجسم بما يتحلل من المعدن من صدأ وهو سام(4).

كما نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه ولا يتمسح بيمينه» والنهي هنا على كل تقدير - كما يقول العيني - نهي أدب، وذلك لما يخشى من أن تحصل الأمور التالية إذا تنفس المرء في الإناء:

1- أن يبرز من فيه الريق فيخالط الماء فيعافه الشارب.

2- ربما روح نكهة المتنفس اذا كانت فاسدة، والماء للطفه ورقة طبعه تسرع إليه الروائح.

3- أنه يتشبه بالدواب التي إذا كرعت في الأواني جرعت ثم تنفست فيها ثم عادت فشربت إلا الخيل فإنه من كرمها أنها تشرب مرة واحدة ولا تتنفس في الماء أثناء الشرب، والسنة كما علمنا إياها الرسول عليه الصلاة والسلام أن يشرب المسلم على ثلاثة أنفاس، يرفع في كل واحد منها الإناء عن فمه.

وليس صعباً على الإنسان أن يجمع بين حكمتي السنة والطب وأن يشرب الماء قليلاً قليلاً دون أن يتنفس في الإناء، كما ورد في الأثر: «مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً فإنه أهنأ وأمرأ وأبرأ». ومثل ذلك النهي عن النفخ في الطعام أو الشراب، فقال رجل: القذاة أرها في الإناء قال أهرقها قال: فإنني لا أروى من نفس واحد، قال: فَأَبِنِ القدح إذاً عن فيك، وقد ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله: «لا تشربوا واحداً كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسموا اذا أنتم شربتم واحمدوا إذا أنتم رفعتم»(5).

وقد نهينا أيضاً عن الشرب من ناحية الآنية التي لا يستحكم الشرب منها ولا يقع عليها الغطاء محكماً، وعن الشرب من باب السقاء، وبخاصة اذا لم يكن مغلقاً، فقد روى أن رجلاً شرب من فم السقاء فانسابت إلى بطنه حية كانت في الماء.

ولما كان الماء مطلوباً للشرب والنظافة ولحياة الحيوان والنبات، فقد ورد الأمر الشرعي بالمحافظة عليه وعدم الإسراف فيه، حتى وإن كان ذلك من أجل العبادة، بوضوء أو اغتسال أو إزالة جنابة أو حيض أو غير ذلك.

وقد تمسك المسلمون الأوائل بهذه التعليمات الالهية، فكان ماؤهم معيناً، صافياً، زلالاً، ولا تشوبه شائبة، ولا يتعدى عليه أي معتد أثيم، وانطلاقاً من قاعدة المحافظة على البيئة الإنسانية، فقد ناقش الفقهاء حكم سؤر سباع الحيوان وسباع الطير، وحكم ولوغ الكلب من الإناء، وذلك لما عرفه العلماء من العلاقة بين الظاهر والباطن في كل الجوانب والاتجاهات، وهو ما أشار إليه علماء المسلمين أثناء بيانهم للآية الكريمة الثانية والعشرين بعد المائتين من سورة البقرة والتي يقول فيها عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ حين تكلم في ذلك الإمام الغزالي وغيره من المتصوفة مشيرين إلى العلاقة التامة بين الطهارة الظاهرة والباطنية، وإن الظواهر تدعو حثيثاً للبواطن وكلما كان الإنسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جر ذلك إلى العناية بالباطن. فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنة، وهذا ما توصل إليه العلماء الغربيون بعد دراسات مستفيضة حول تلك العلاقة، فهذا العلامة الانكليزي (بنتام) يقول في أصول الشرائع أنه يوجد بين التنعم الجسمي واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظه كثير من المؤلفين، فإن النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز في أفعاله والتمسك بالوقار في أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديد جداً، حتى أن شرائع المسلمين حثت عليها كلياً، وجعلتها من الواجبات الأولية، فمن لم يصدق بتلك الأديان لا ينكر تأثيرها الجسمي(6).

وإذا علمنا أن أصل التطهير في الشرع إنما يكون بالماء فإنه من السهل علينا أن نفهم ما أشار إليه القرآن من الأوامر التي تحول دون مجامعة المرأة أثناء

الحيض وضرورة تطهرها بالماء بعد انقطاع ذلك الدم الذي وصف بأنه أذى، ويمكن من خلال ذلك تصور مدى محافظة الإسلام على البيئة العامة والخاصة بأبعادها عن كل ما يمكن أن يوقعها في الأذى الجالب للأمراض والتشوهات والبلايا التي تظهر مع التطور التكنولوجي وابتعاد الناس عن الالتزام بالأوامر الشرعية، وانحطاطهم في علاقاتهم الجنسية باعتبارها من أكثر القضايا التي يفكر فيها الرجل والمرأة، ونقف كذلك عن كثب على المقصد الأسمى الذي اشتملت عليه سورة النور من خلال ما أرسته من تعاليم سامية تحفظ على الرجل والمرأة طهارتهما وبيئتهما، وتبعدهما عن الانزلاق في الفساد والوقوع في غضب الله.

وليس فينا من أحد ينكر أن الماء يكون العنصر الأول والأعلى من بين عناصر تكوين الأجسام، وأن الماء يغطي أربعة أخماس المعمورة، سواء كان صلباً (كالثلج) أو سائلاً كالبحار والمحيطات والأنهار، ولم يكن هذا الأمر عبثاً أو صدفة وإنما هو حكمة الهية تظهر عظمة الله في هذا الكون، حيث يلعب الماء دور المكيف الدائم الذي يحول دون طغيان الحرارة أو غلبة المناطق المتجمدة، ويساعد بذلك على استمرار الحياة على وجه المعمورة برها وبحرها، سهولها وجبالها. وعليه فإن الماء يلعب دوراً ريادياً في حياة الأمم فوق هذه الأرض، وإن فقدانه بالقدر الذي يشعر فيه الإنسان بالحاجة إليه، إنما هو نوع من الخروج عن المعهود الفطري والسنة الكونية العامة التي أوجدها في هذا الكون المترامي الأطراف، ومن هنا كانت منة الله على الخلق بوجود الماء، وتحذيرهم من أن يصبح ماؤهم غوراً لا يستطيع أحد أن يأتيهم به غير الله عزّ وجلّ.

وهذا بحد ذاته يفتح أمامنا الأبواب على مصراعيها لنسأل أنفسنا في العالم العربي والإسلامي عن مدى التلوث البيئي في مختلف المجالات التي جعلت من أهم مشاكلنا التي نبحث لها عن حل دائم هي مشكلة المياه، بل خصها البعض واعتبرها مشكلة القرن الواحد والعشرين فبالإضافة إلى ما تقوم به الدول من استلاب ونهب للمقدرات المائية في منطقة ما، فإن البشر أيضاً يقومون بالتعدي على الثروة المائية سواء كان ذلك عن طريق إلقاء المخلفات الصناعية السامة في أعماق البحار والمحيطات أو عن طريق تحويل جميع مصبات المجاري والمخلفات البشرية إليها، أو بما تحدثه الناقلات العملاقة المدنية منها والعسكرية من مؤثرات تغير طبيعة الماء وتجعل منه بيئة غير صالحة لعيش الحيوانات المائية وما أجمل أن تقف عناصر الكون تتناظر وتتحاور ويظهر كل منها مآثره ومفاخره، فهذا الهواء وذاك الماء يتناظران في أسلوب شيق رفيع أظنك في شوق إلى سماع ما دار في ذلك الحوار حيث قال الهواء: أنا الذي أؤلف بين السحاب وانقل نسيم الأحباب. وأهب تارة بالرحمة وأخرى بالعذاب، وأنا الذي سيّر بي الفلك في البحر كما تسير العيس في البطاح، وطار بي في الجـو كل ذي جناح، وأنا الذي يضطرب مني الماء اضطراب الأنابيب في القنا، إذا صفوت صفا العالم، وكان له نضرة وزهواً، وإذا تكدرت انكدرت النجوم وتكدر الجو، لا أتلون مثل الماء المتلون بلون الاناء، لولاي ما عاش كل ذي نفس ولولاي ما سمع كناب ولا حديث، ولا عرف طب المسموع والمشموع من الخبيث، فكيف يفاخرني الماء الذي إذا طال مكثه ظهر خبثه، وعلت فوقه الجيف، وانحطت عنده اللالي في الصدف.

فقال الماء: أنا أول مخلوق ولا فخر، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم المحشر، وأنا الجوهر الشفاف المشبه بالسيف إذا سل من الغلاف، وقد خلق الله في جميع الجواهر حتى اللالئي والأصداف، أحي الأرض بعد موتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها، وأكسو عرائس الرياض أنواع الحلل، وأنثر عليها لالئي الوابل والطل، حتى يضرب بها في الحسن المثل، كما قيل:

إن السماء اذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

ثم قال الماء أيضا: أما رأيت ما حباني الله به من عظم المنة، حيث جعلني نهراً من أنهار الجنة.

وأنا أرفع الأحداث، وأطهر الأخباث، وأجلو النظر، وأزيل الوضر، أما رأيت الناس إذا غبت عنهم يتضرعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء، ويسألونه تعالى إرسالي من قبل السماء، واعلم أنني ما نلت هذا المقام الذي ارتفعت به على أبناء جنسي، إلا بانحطاطي الذي عيرتني به وتواضعي وهضم نفسي[7].

الهوامش

1- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقطي، مطبعة المدني، 1965، جـ4، ص565.

2- نهاية الأرب في فنون الأدب، احمد بن عبدالوهاب النويري، دار الكتب المصرية، 1923، جـ1، ص72.

3- المخلاه، محمد بن حسين العاملي، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1985، ص192، 232، بتصرف.

4- هامش كتاب المغني، ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، 1970، جـ1، ص15.

5- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود احمد العيني، بيروت، إدارة الطباعة المنيرية، جـ2، ص294-296 بتصرف.

6- تفسير الجواهر، طنطاوي جوهري، ط1، 1350هـ، جـ1، ص205.

7- جواهر الأدب، احمد الهاشمي، مصر، مطبعة السعادة، 1960، جـ1، ص285.

هـ - الهواء

الهواء أشرف عناصر البيئة وذلك لكونه مرتبطاً بأشرف أعضاء الجسد وهو القلب وهو بالمد الجو ما بين السماء والأرض والجمع الأهوية وأهل الأهواء واحدها هوى وكل فارغ هواء، وفي التنزيل العزيز: ﴿وأفئدتهم هواء﴾[1]، يقال فيه: أنه لا عقول لهم، وقال الزجاج، وافئدتهم هواء أي منحرفة لا تعي شيئاً من الخوف وقيل: نزعت افئدتهم من أجوافهم[2]. والريح هي الهواء بعينه وقيل التموج من الهواء هو الريح بأي سبب تقع[3]. فإذا أحدث الله فيه حركة هبت واضطربت، وكذا يقول أكثر القدماء أن الريح سيلان الهواء ويزعمون أن هبوبها مرور الشمس بالأرض فيرتفع منها البخار، فاذا كان رطباً كان مادة الأمطار، وإن كان يابساً كان مادة الرياح، وهذا جائزان يجعل الله مرور الشمس علة لإثارتها اذا شاء، كما جعل السحاب سبباً للمطر[4].

قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في حده: الهواء جرم بسيط، طباعه أن يكون حاراً رطباً مشفاً متحركاً إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق الأرض والماء وزعم آخرون من القدماء: إن الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمي ريح الصبا وهي الريح التي نصر بها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» والعرب تحب الصبا لرقتها ولأنها تجيء بالسحاب والمطر فيها والخصب، وهي عندهم اليمانية[5].

وقد ذكر الله نوعين من الرياح، فوصف إحداها باللواقح ووصف الأخرى بالعقيم وهي التي أهلك بها عاداً.

قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾، الحجر آية رقم 22. وقال تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾، الذاريات، آية رقم 41. وهذا يعني أن الرياح منها ما هو بشير خير، حين تحمل في ثناياها السحاب المسخر بأمر الله فتسوقه إلى حيث يشاء الله. ومنها ما هو نذير شر حين تكون صرصراً عقيماً تحمل في ثناياها العذاب وسخط الله، فتكون بذلك جنداً من جنود الله يرسلها على من يشاء من عباده ويسخرها لمن يشاء، وهناك الزوبعة والإعصار أعني الريح المستديرة المتصاعدة والهابطة فسبب الصاعدة تلاقي الريحين من جهتين متقابلتين، وسبب الهابطة أن تنفصل ريح من سحابة فتقصد النزول، فتعارضها في الطريق سحابة صاعدة، فتدافعها الأجزاء الريحية إلى تحت جزء من الريح بين دافع الى تحت ودافع إلى فوق، فيستدير فتنضغط الأجزاء الأرضية بينهما فتهبط، وقد استدل العلماء من أحوال الرياح على وجود الخالق الفاعل المختار قال سعد الدين التفتازاني: والحق أن ما شوهد من أحوال الرياح القالعة للأشجار والمختطفة للسفن من البحار، وما تواتر من تخريبها للمدن، يشهد شهادة صادقة بوجوب الرجوع إلى الفاعل المختار(6).

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها، واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»، أخرجه البيهقي في سننه.

وروى أبو الفرج ابن الجوزي باسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين: رحمة وعذاب، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام ولكل قسم اسم، فأسماء أقسام الرحمة: المبشرات والنشر، والمرسلات والرخاء، وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف والقاصف وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر، وقد جاء القرآن بكل هذه الأسماء(7).

وتظهر أهمية هذا العنصر من خلال كونه ضرورياً لحياة الإنسان والحيوان والنبات وبدونه لا يمكن أن تقوم لشيء منها حياة أو وجود.

وقد بينت الدراسات العلمية أن الهواء يتكون أساساً من غازي النيتروجين بنسبة 78.84٪ والأكسجين بنسبة 20.946٪ ويوجد إلى جانب ذلك غاز ثاني أكسد الكربون بنسبة 033٪ ولكي يتم التوازن في البيئة ولا يستمر تناقص الاكسجين فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تقوم النباتات بتعويض هذا الفاقد من خلال عملية البناء الضوئي حيث تفاعل الماء مع غاز ثاني أكسيد الكربون في وجود الطاقة الضوئية التي يمتصها النبات، بواسطة مادة الكلوروفيل الخضراء، ولذلك كانت حكمة الله ذات أثر عظيم رائع فلولا النباتات لما استطعنا أن نعيش بعد أن ينفذ الاكسجين في عمليات التنفس والاحتراق ولما وجد أي كائن حي في البر أو البحر، إذ أن النباتات المائية أيضاً تقوم بعملية البناء الضوئي، وتمد المياه بالأكسجين الذي يذوب فيها، واللازم لتنفس كل الكائنات البحرية(8).

وقد أدرك السابقون قيمة الهواء، فذكروه في كتبهم ومؤلفاتهم، وعالجوا فيها جميع ما يتعلق به من حيث أثره على الصحة العامة، وجهاته

وأنواعه، ومدى تأثير كل نوع على اللون والذكاء والفطنة والبلادة وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بين البشر في هذا العالم الفسيح الأرجاء، فأرجعوا إليه جميع تغير أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فقد روى عن الحكيم أبقراط قوله: إن تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس، مرة إلى الغضب ومرة إلى السكون وإلى الهم والسرور وغير ذلك، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم، فأما علة تشابه صور الترك فإنه لما استوى هواء بلدانهم في البرد استوت صورهم وتشابهت، وكذلك أهل مصر لما استوت أهواؤهم تشابهت صورهم، ثم تابع يبين أثر الهواء على أخلاقهم وأمزجتهم فقال: ولما كان الغالب على هواء الترك البرد وعجزت الحرارة عن تنشيف رطوبات أبدانهم، كثرت شحومهم، ولانت أبدانهم وتشبهوا بالنساء في كثير من أخلاقهم، فضعفت شهوة الجماع فيهم وقل ولدهم لبرد مزاجهم وللرطوبة الغالبة عليهم، وقد يكون ضعف الشهوة أيضاً لكثرة ركوب الخيل، وكذلك نساؤهم لما سمنت أبدانهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع إليها، ولم يقصر أبقراط أثر الأهوية على الإنسان فحسب بل جعله متعدياً ليشمل الحيوان والنبات كذلك فقال: إن الروح المطبوعة فيها هي التي تجذب الهواء إلينا، وإن الرياح تقلب الحيوان من حال إلى حال وتصرفه من حر إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن، وإذا تغير الهواء تغييره بتغير كل شيء، فمن تقدم وعرف أحوال الأزمنة وتغيرها والدلائل التي فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العلم، وتقدم في حفظ صحة الأبدان(9).

ولهذه الأمور وغيرها فإن باستطاعتنا فهم قيمة ما يحرص عليه المسلمون من أنواع البخور والعطورات الملطفة للجو، والجالبة لراحة القلب، كما تبين لنا أهمية الورود والأشجار ذات الرائحة الزكية التي تزرع بها البساتين حول البيوت والمباني، فقد روى عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: شمو النرجس ولو في اليوم مرة واحدة ولو في الشهر مرة واحدة فإن في القلب حبة من الجنون والبرص لا يقلعها إلا شم النرجس(10).

ولا شك في أن المحافظة على النسب الطبيعية المكونة للهواء أمر ضروري لصحة الإنسان والحيوان والنبات، وأن وجود اي من الملوثات التي تؤثر على السلامة العامة هو من أخطر الأمور التي يمكن أن يواجهها الإنسان بل والكائنات الحية قاطبة، ولذلك وجدنا آباءنا وأجدادنا يراعون ذلك في مبانيهم وقصورهم وسجونهم وغير ذلك من مرافق حياتهم مع الاتبعاد عن كل ما يمكن أن يؤثر سلباً في سبل الراحة والطمأنينة النفسية والجسدية على حد سواء.

والناظر في قصور السابقين من الأمويين والعباسيين والفاطميين في كل من بغداد ودمشق وغرناطة واستانبول والقاهرة وغيرها لا يسعه إلا أن يعترف بالدور المتقدم الذي وصل إليه اولئك الناس في المحافظة على البيئة وبيان آثارها في مختلف جوانب الحياة العملية والواقعية.

قال بعض الحكماء: خير الحمام ما قدم بناؤه واتسع هواؤه، وعذب ماؤه، وقدر الوقاد وقوده بقدر مزاج من أراد وروده، ويبخر الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين لا سيما اذا شرع في كنسها وغسلها، ومتى بردت

الحمام فينبغي أن يبخرها بالخزامى فإنه يحمى هواءها ويطيب رائحتها، وفي أيام الشتاء يزيد في بخورها الميعة اليابسة، وتسد المنافس التي يدخل منها الدخان الذي يسمى الزنبور، فإن ذلك مضرة لعيون الناس ورؤوسهم(11).

ويقول ابن قدامة المقدسي: إذا حصلت أغصان شجرته في هواء ملك غيره، أو هواء جدار له فيه شركة، أو على نفس الجدار، الزم مالك الشجرة ازالة تلك الأغصان، أما بردها إلى ناحية أخرى وإما بالقطع، لأن الهواء ملك لصاحب القرار، فوجب إزالة ما يشغله من ملك غيره كالقرار، وعلى الوجهين إذا امتنع من إزالته كان لصاحب الهواء إزالته بأحد الأمرين، لأنه بمنزلة البهيمة التي تدخل داره له إخراجها(12).

كما تحدث العلماء الذين كتبوا في علم الريافة عن كيفية استخراج الهواء الفاسد من الآبار مما يدل على أنهم كانوا على دراية كاملة بالتلوث الذي يمكن أن يلحق الهواء ويؤدي بالتالي إلى موت الإنسان ونهايته، فقد ورد في كتاب الفلاحة لابن وحشية كيفية اختبار هواء البئر لمعرفة ما اذا كان صالحاً أو فاسداً، وكيفية استخراج الهواء الفاسد منه فقال: على الذي يهبط إلى البئر التي يتصاعد منها بخار رديء أن يشعل شمعة قبل أن يهبط ويدليها في البئر فإن انطفأت فعليه أن يعمد إلى سراج فيشعله ويدليه، وليكن بدون زيت بل بشحم، فإن انطفأ فالبئر رديء ويجب الإقفال والإهمال.

ولإخراج الهواء الفاسد من البئر يجب أن يقام بأعمال منها:

1- مراوح كبيرة من الخوص أو غصون من النخل تحرك بقوة داخل البئر.

2- كتل من الصوف تدلى وترفع ليخرج منها بخار البئر.

3- صب ماء في البئر دفعة واحدة، والترويح بالمراوح، فإن ذلك يحرك ويخرج.

4- تنزل إلى البئر حزمات من القصب مربوطة بحبال يمسك بكل حزمة رجل ثم يأخذون في التحرك إلى أعلى فأسفل.

5- تنزل مجمرة فتصعد وتهبط وعليها خيار مجفف وقرع وبطيخ(13).

وتواجه البشرية اليوم نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي والصناعي محنة عسيرة عليها أن تتداركها قبل أن تستفحل ويستشري خطرها اكثر مما وصلت إليه الآن، بعد جهد الإنسان في البحث عن وسائل الراحة والرفاهية، فلجأ إلى التصنيع والأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية، فأخذت مداخن المصانع وعوادم السيارات تلقي بآلاف الأطنان من الغازات السامة والملوثات البيئية الكفيلة بقتل كل أنواع الحياة، سواء كانت في البر أو في البحر، متعلقة بالإنسان أو بغيره من الكائنات الحية واذا ما أضفت إلى ذلك مخلفات المواد المشعة غير المرغوب فيها من مواد تصنيع الأسلحة الفتاكة التي يحرص الإنسان على تطويرها لحماية نفسه من أخيه الإنسان أو للسيطرة عليه واستغلاله واستعباده، فإن المشكلة تزداد تعقيداً وتحتاج إلى معالجة سريعة قبل أن يبلغ السيل الزبا ويؤدي تلوث الهواء إلى كارثة بشرية تنذر بزوال حياة جميع الكائنات الحية فوق هذه الأرض.

وتظهر بعض الاحصائيات القديمة الصادرة عام 1974، أن اثني عشر

الف أمريكي يموتون سنوياً ضحية الحرائق وأن ثلاثماية ألف شخص يصابون بجروح أو تشوهات كبيرة من هذه الحرائق سنوياً، ومن بين الأشياء التي أظهرتها البحوث الخاصة بالحرائق خلال السنوات الخمس الماضية من الدخان والغازات الناتجة عن الحرائق هي التي تقتل أكبر عدد من ضحايا الحريق، إن غازات أول أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكربون والحرارة والدخان ومكوناته تقتل من البشر أعداداً أكبر ممن تقتلهم ألسنة اللهب نفسها، ولعل غاز أول أكسيد الكربون هو أشد الغازات فتكاً بأرواح الناس، فهذا الغاز وإن كان موجوداً بنسبة ضئيلة يؤدي إلى إضعاف حواس الإنسان وبصره ويؤدي إلى شل تصرفاته تجاه الدخان وألسنة اللهب، وينتج من الحرائق حوالي ثلاثماية نوع من الغازات الاخرى إلى جانب أول أكسيد الكربون وبعض هذه الغازات قاتلة أيضاً، وعندما تحترق المواد الصوفية أو المواد المصنوعة من البلاستك فإن غاز سيانيد الايدروجين يتصاعد في الجو، ويتنافس مع الأكسجين على احتلال مكان في جزيئات الهيموجلوبين في دم الإنسان(14).

وإذا ما علمنا بأن الاحتراق، أي احتراق، إنما هو عودة إلى الأصل الذي بدأ منه وهو ثاني أكسيد الكربون حين يتحد مع الأكسجين في الهواء، فإننا نستطيع أن نتصور عظم المشكلة التي تعاني منها في أيامنا هذه، حيث انتقل الاحتراق من كونه في الخارج إلى داخل البيوت، بعد أن تم اكتشاف الغاز الطبيعي الذي حل محل غاز الفحم الحجري، وأصبحت بذلك جميع عمليات الاحتراق تتم داخل البيوت في خطوة حضارية مع ما فيها من مخاطر على الأرواح والممتلكات، خاصة وأن أكثر من 95٪ من البيوت

والأماكن العامة من مطاعم ومستشفيات يتم الطبخ فيها بهذا الغاز، ولم يقتصر في استعماله على الطبخ بل تعداه ليدخل في صناعة الزجاج والعقاقير الطبية والألبسة وغير ذلك من الاستعمالات. ونظرة سريعة في بيوتنا اليوم تبين مدى تلوث الهواء فيها، والناتج عن وجود الحمامات المربوطة مع شبكة المجاري العامة، وما تنفثه من روائح كريهة في داخل البيوت، يضطر معها الناس إلى استعمال مواد كيماوية إما لإزالة الرائحة أو للتنظيف هذا إضافة إلى ما تصدره الجدران من إشعاعات وروائح تخرج من الدهانات سواء كانت على الجدران أو على الأبواب، أو على غير ذلك من مصنوعات الجبس أو الاسفنج والنسيج مع ما ذكرناه آنفاً من الغاز المحترق أثناء الطبخ في داخل البيوت، وهذا جميعاً يقتضي الاهتمام المتزايد بالوضع العام للبيوت من حيث الموقع والصيانة والتهوية، لما أثبته علم الميكروبات من أن جدران البيوت التي لا يدخلها الهواء والشمس تمتلىء بالمكروبات الفتاكة التي لا ترحم البيت ولا الساكنين فيه، وكم من رجل أعيته حيلة الدواء من مرض عضال، وكان دواؤه لا يتعدى خروجه من منزله إلى منطقة فيها هواء طلق نقي، وكما يقول محمد فريد وجدي فإن مهب كل الأضرار الناجمة من جراء البيوت آتية من أحد أمور أربعة هي: قبح وضعها، سوء اتجاهها، ورداءة مواد بنائها، وعدم انتظام تقسيمها[15].

وخير واق من المكروبات التي يمكن لها أن تعشعش في هذه البيوت هو ما توصل إليه أجدادنا وأسلافنا من قبل بطلاء الجدران بين الحين والآخر بالجير حيث يعتبر مع الهواء والشمس من أكبر المبيدات للحشرات والمكروبات.

وختاماً فإن علينا أن نعلم بأن الدخان وغلبته، إنما هو من علامات الساعة، ومن الآيات التي يرسلها الله على عباده الظالمين.

يقول رب العزة: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾، الدخان آية 10-11، وقد اختلف في هذا الدخان متى يأتي، فقيل أنه من أشراط الساعة، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً وقد ثبت في الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة، وقيل أنه أمر قد مضى، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً.

وقال ابن قتيبة فيه وجهان: الأول، أنه في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير، ويظلم الهواء، وذلك يشبه الدخان، ويقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان، ولهذا يقال للسنة المجدبة: الغبراء، الثاني: أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان والسبب فيه أن الإنسان اذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه، ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان(16).

وإذا ما أدركنا عدد الغازات المؤدية إلى تلوث الهواء، فإن باستطاعتنا أن نتصور ذلك الدخان الذي هو عقوبة من الله نتيجة الإعراض، أو شرط من أشراط الساعة التي أخذت تبدو تباشيرها في الأفق، فالدخان المتصاعد فقط من السجائر التي يشربها المدخنون كفيل بأن يقضي على قدر كبير من الأكسجين النقي الذي هو أساس عملية التنفس عند الإنسان وغيره من الكائنات الحية، أضف إلى ذلك عوادم السيارات، وغاز ثاني أكسيد الكبريت

وغاز الأوزون الشديد السمية وأكسيد النيتروجين والبنزين غير المحترق، ومركبات الرصاص وغيرها من الغازات المؤدية في عمومها إلى ضيق في التنفس، وتسمم في الدم وغير ذلك من الأمراض الخبيثة التي تفتك بالإنسان وأعضائه بلا شفقة ولا رحمة.

وهذا كله يدفعنا إلى تلمس طرق النجاة، والعمل على صيانة هواء بيئتنا مما يلوثها ويعكر صفو الحياة عند أبناء البشر من مسلمين وغير مسلمين، وما أدري إلى متى يمكن أن تبقى الأمة المسلمة آخذة غير معطية، تتلقى الضربة تلو الأخرى دون أن تتعظ أو تعتبر وهي ترى أعداءها الذين يصدرون لنا جميع منتجاتهم الصناعية يتخذون الاحتياط تلو الآخر حفاظاً على حياة أبناء جلدتهم ومواطنيهم بأقصى ما يمكن أن يفعلوه.

الهوامش

1- سورة إبراهيم، آية رقم 43.

2- لسان العرب المحيط، يوسف خياط وزميله، المجلد الثالث، ص848.

3- المقراض الحاد، الأمير عبدالقادر الجزائري، لبنان، دار مكتبة الحياة، ص64.

4- البدء والتاريخ، احمد بن سهل البلخي، باريس، 1899، جـ2، ص30.

5- نهاية الأرب في فنون الأدب، احمد بن عبدالوهاب النويري، دار الكتب المصرية، 1933، جـ1، ص95، 97.

6- المقراض الحاد، ص64.

7- نهاية الأرب، النويري، ص95.

8- مجلة الوعي الإسلامي العدد 197، جمادي الأولى، 1401هـ، ص127.

9- مروج الذهب، المسعودي، مطبعة السعادة، مصر، ط3، 1958، جـ2، ص231.

10- المخلاة، العاملي، ص506.

11- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ابن بسام، ص67-70.

12- المغني، ابن قدامة المقدسي، الرياض، جـ4، ص538، 541.

13- العقل العلمي في الإسلام، علي شلق، لبنان، ط1، 1992، ص222.

14- مجلة العربي، الكويت، العدد 188، ص120.

15- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ط3، 1923، جـ2، ص446.

16- فتح البيان، صديق حسن خان، مطبعة العصامة، جـ8، ص446.

الثوابت البيئية في الإسلام

لا يشك أحد في أن الغرض من المحافظة على البيئة إنما هو المحافظة على صحة الإنسان وماهيته وسعادته في هذه الحياة الدنيا، ولذلك فإننا نجد ولو ظاهرياً جميع الأديان والفلسفات تدعو إلى اتخاذ خطوات فعّالة في هذا الجانب، كي يظل أتباعها على درجة من القوة والمنعة تحفظ عليهم أوطانهم وأجسادهم وذراريهم.

ولما كانت جميع جوانب تلوث البيئة مرتبطة ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر مع الصحة والتقدم والرفاهية فإن الناظر إلى هذا الكون يجد فيه جميع المقومات البيئية التي من شأنها أن تحقق السعادة لهذا الإنسان اذا ما حافظ على الاتساق والتناسق الذي أوجد الله عليه الكون بمعنى أن أي تعد على النسق الالهي الذي فطر عليه السموات والأرض إنما هو خلل يؤثر سلبياً على الحياة الدنيا وعلى مافيها من عناصر تخدم الإنسان وتحقق له مراده، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾[1]، وقد كشفت الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون، الأرض بهيئتها هذه وبعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، ولسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا، بتكوين من سطحها هذا وبآلاف من الخصائص، هي التي تصلح للحياة وتوائمها، فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة، وقد جاءت طبيعة القرآن تعالج بناء الإنسان بناء يتفق مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الالهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته، هذه

النواميس التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه اليه عقله الموهوب له ليعمل وينهض بنفسه وبأمته وبالإنسانية جمعاء[2].

فالاستعمال الإنساني للوسائل الكونية واستخدامها إنما هو المقياس الحقيقي الذي يوجه العناصر البيئية نحو الخير أو الشر، وعليه فإن مستقبل الجنس البشري مرتبط بموقفه من البيئة مع التسليم بأن العلم والتكنولوجيا المعاصرة لا يمكنها أن تنفرد بايجاد الحلول الشافية لجميع المشاكل البيئية المعاصرة والاعتراف بأنها يمكن أن تقدم قدراً محدوداً يتناسب طردياً مع مدى موافقته أو عدم موافقته للسنن الكونية الكبرى، والتي تحمل في ثناياها عبر الأجيال والأزمان عنصر الحياة التي لا يختل نظامها إذا بقيت على الصورة التي أوجدها عليها الله سبحانه وتعالى.

وبمعنى آخر فإن الإسلام قد أشار إلى عدة قوانين إذا ما توافرت كان النظام البيئي في أي مكان أو زمان على خير ما يرام، يحمل في ثناياه الخير والطمأنينة والسعادة لكل الخاضعين لقوانينه وثوابته، وأرى أن من الضروري أن أشير إلى تلك الثوابت بصورة سريعة استطيع من خلالها والقارىء الكريم أن أكّون صورة حية وواقعية للبيئة الإسلامية التي تعبر عنها المبادىء والأحكام الشرعية الواردة في الكتاب والسنة أو على لسان العلماء من جهابذة المسلمين في مختلف أنواع العلوم أو تبديها الممارسات العملية التي كانت زمن الدولة الإسلامية، حين كان لا فرق بين ما في الكتاب والسنة وبين ما يتعامل به الناس من تشريعات وأحكام.

ويجب قبل أن نتعرض لتلك الثوابت أن نؤكد بأن الاسلام قد حرص على إنشاء تصور خاص بنظام خاص ومجتمع خاص تكون بيده مقاليد القيادة

البشرية، ليأخذ بأيديها إلى نموذج فريد من الحياة وفق قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل مع تغير الزمان أو المكان، وفقاً لما تفرضه تلك الثوابت من الاستقرار الديني والفكري والسلوكي والاجتماعي والسياسي وغير ذلك من مستلزمات النهضة الشاملة في المجتمع المنشود، وهذا ما يعطي المبادىء البيئية الإسلامية صفة الصلاحية المطلقة التي تحقق لأفرادها السعادة والرخاء في الدنيا والآخرة، ولم تكن الثوابت الإسلامية للبيئة ضرباً من الخيال ولا أسطورة من أساطير قدماء الرومان واليونان وإنما هي جزء من الفطرة التي فطر الله عليها الناس يوم أن خلق آدم من تراب وصلصال كالفخار، وليست النفس البشرية وما يتبعها من أنماط فكرية وثقافية واعتقادية إلا صورة للواقع البيئي الصحيح أو المنحرف الذي تتمثل به فئة دون أخرى، وبالقدر الذي تتوافق فيه تلك التصورات والمعتقدات مع الواقع الفطري والواقع الكوني، يمكن الحكم من خلال ذلك على الواقع البيئي الذي يفرض نفسه نتيجة ممارسات ومكتسبات بشرية مسؤولة أو غير مسؤولة، وهذا يوجه الأنظار إلى كثير من الاستعمال المفرط للموارد الطبيعية التي تكونت على مدى آلاف السنين، والإهمال الذي يقابل به هذا الاستعمال في شتى المجالات، وأهمها عدم التفكير في العناصر البديلة التي يمكن من خلالها ومع مدة الاستعمال التعويض عن أجزاء مهمة مما تفتقده تلك الموارد من العناصر البيئية، وذلك يقودنا إلى أن نكون صرحاء مع أنفسنا وأن نبذل الوقت والمال من أجل أحياء ما ضاع من النظم البيئية في واقعنا المعاصر.

وتعال معي أخي القارىء لنستعرض سوياً بعضاً من تلك الثوابت التي أشرنا إليها سابقاً:

أولاً: وحدانية الله عزّ وجلّ

والتي تعتبر حجر الأساس في التفكير الإسلامي وفي مختلف المجالات الإنسانية والكونية المصيرية.

ولا يمكن لأحد أن يتصور ذلك المعنى إلا إذا اعترف بأن المصدر الوحيد للقيم والأفكار والمعتقدات إنما هو راجع إلى الله سبحانه وإن الإنسان مسؤول أمامه في النهاية عن كل ما يقول أو يفعل، هذا الاله الذي امتلاء الكون بالأدلة والبراهين على عظمته ووجوده، وذلك بما حواه من مخلوقات وكائنات، وظواهر رائعة ونظام ثابت محكم، وقد أثبت العلم الحديث صحة هذا القول بما حواه كتاب الهداية المنزل من عند الله عزّ وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم (القرآن)، من ذلك كما أن براهينه لم تخالف عقلاً ولم تصطدم مع علم أو معرفة، وقد كانت الآية الأولى فيه تدعو إلى العلم والتعلم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾، وتدل هذه الآية وغيرها من الآيات التي رفعت من شأن العلم والعلماء على أن المسلم مأمور بالنظر وبالبحث والتفكر في هذا الكون واستغلال نواميسه التي سخرها الله عزّ وجلّ لخدمته وسعادته، ولذلك نجده يكد ويعمل بلا كلل ولا ملل، خاصة وهو يقرأ في كتاب الله ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ سورة الأنبياء، آية16.

وتظهر لك قيمة هذا الأمر من خلال ما نراه في المجتمعات التي لا تدين لاله واحد بالعبودية والحاكمية والالهوية، وكيف أنها تفصل بين العلم والدين، بل وأن أكثر من واحد من علماء الغرب قد حاربته الكنيسة وأصدرت عليه الأحكام الظالمة نظراً لما صرح به من نظريات علمية تخالف ما

كانت عليه الكنيسة، ولا يخفي كثير من الباحثين الغربيين هذه الحقيقة حيث يحاول بعضهم أمثال فرايزر دارلنج وثيودور روزاك، والسيد جوفري فيكرز، ولين وايت الصغير أن يبرهنوا أن هذه المخاطر ما هي إلا نتاج النظام الأخلاقي العربي، وجذور أزمتنا الايكولوجية بديهية فهي تكمن في معتقداتنا وكياناتنا القيمة التي تشكل بدورها علاقتنا بالطبيعة، وعلاقة كل منا بالآخر وكذلك تشكل الأنماط الحياتية التي نعيشها وعند وايت أن التمزق الحالي المتزايد للبيئة الكروية، إنما هو نتاج علم وتكنولوجيا دينامية ترجع أصولها إلى القاعدة الأخلاقية للمسيحية فهو يعتبر أن العلم الحديث هو خلاصة النظرية اللاهويتة المسيحية، وأن التكنولوجيا هي إدراك طوعي للعقيدة المسيحية القائلة بتفوق الإنسان على الطبيعة، وحقه في ممارسة سيادته عليها، ويعتقد وايت أيضاً أن العلم والتكنولوجيا مصبوغتان بالعجرفة المسيحية الارثوذكسية تجاه الطبيعة، بحيث لا يمكن إيجاد حل لأزمتنا الايكولوجية من خلالهما.

ولقد قدم وايت آراءه تلك في عام 1967م ومنذ ذلك الحين والعالم تلو الآخر يرددها حتى أنها قد أصبحت جزءاً من النموذج الغربي للأمة الايكولوجية المعاصرة[3].

ونظرة في الواقع الإسلامي، وبكل أسف تظهر لك أن ما قرره علماء الغرب إنما هو نفسه الواقع الغربي، حيث أن غياب القيم والمعاني الإسلامية وعدم الالتزام الكامل بالشريعة أدى إلى هذه النتيجة المخزية، والتي فصلت بين المفاهيم والأحكام الشرعية وبين أشكال وأنماط الحياة عند المسلمين، ولذلك لم نجد عند المعاصرين من المسلمين من حاول وضع تصور بيئي

كامل وشامل يعبر عن وجهة نظر الإسلام في هذا الجانب العلمي الذي أخذت حاجة العالم إليه تتزايد يوماً بعد يوم نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي.

وهذا الأمر بحد ذاته، إضافة إلى نزوع العالم الإسلامي نحو التقدم والحضارة الغربية، إنما هو نذير خطر لما فيه من تقرير لعقيدة الثالوث، وإهمال لعقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام للناس كافة وليس لفئة أو جماعة معينة، ومعنى ذلك أن الجهد المطلوب من العلماء المسلمين هو جهد مضاعف، يتوجب فيه عليهم الإسراع في حل هذه المعضلة وغيرها من خلال أحكام وتعاليم الإسلام، ليظهروا للعالم أجمع بأن ما عجزت عنه عقائد الشرك لا يمكن أن يحل إلا بعقيدة التوحيد. وهذا هو الموقف الإسلامي الذي تقرره النصوص من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وقد جاءت لتقرر براءة الإنسان من الخطيئة التي جاءت تقررها النصرانية الحديثة، وتجعل من السيد المسيح مخلصاً للبشرية بأسرها من تلك الخطيئة، والآيات القرآنية تقرر قول الله عزّ وجلّ: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾[4]، لتعمل على استقلالية الإنسان وكرامته وعدم وضع رأسه في الأوحال، بحيث يعيش حياته بعيداً عن الخوف وعن المؤثرات التي تحد من نشاطه وانطلاقه في هذا الكون الفسيح، وينطلق مع اطلالة كل شمس وكأنه انسان ولد من جديد، لا يدين إلا لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، ولا يخضع لسواه، لعلمه بأنه الرزاق الذي بيده الآجال، ولا أحد يشاركه في ملكوت السموات والأرض، وبذلك يكون المسلم سيداً لا عبداً ولا تقهره الرجال ولا الطبيعة، ويتغلغل

هذا الشعور مع كل جانب من جوانب حياته لا يخشى فقراً ولا مذلة من أحد، فدعوته إلى الله وجهاده في سبيله هما الغاية القصوى لأفعاله وأقواله، ولا شك في أن دين الإسلام يمثل أكمل صورة لحقيقة الوحدة، ويعتبرها أكبر الحقائق على الإطلاق، وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء، ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة (كن). ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة، ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود، ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق ووحدة البشرية من آدم عليه السلام إلى آخر أبنائه في الأرض، ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة، ووحدة جماعة الرسل المبلغة لهذه الدعوة، ووحدة الأمة المؤمنة التي لبت هذه الدعوة، ووحدة النشاط البشري المتجه إلى الله وإعطائه كلمة اسم العبادة ووحدة الدنيا والآخرة داري العمل والجزاء، ووحدة المنهج الذي شرعه الله للناس، فلا يقبل منهم سواه، ووحدة المصدر الذي يتلقون عنه تصوراتهم كلها، ومنهجهم في الحياة، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي أطاقت روحه التجاوب المطلق مع حقيقة الوحدة الكبرى، كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها[5].

ونظراً لما وصلت إليه الأمة الإسلامية من تراجع ملحوظ في هذا الجانب الاعتقادي فإن آثاره بادية في البيئة الإسلامية بوضوح، حيث أن بيئته لا تقل خطراً عما هو عليه الواقع البيئي الغربي، الذي وصل إلى درجة من الخطورة والتدهور لم تعد الدول الغربية تستطيع اخفاءها عن شعوبها ولا عن غيرهم.

فالتوحيد في حياة المسلمين عزة وكرامة، وسيل متدفق من الحيوية والنشاط، وسياج يمنعهم من المعاصي والذنوب، وحصن يلجؤون إليه وقت الشدة بل وأكثر من ذلك فإن التوحيد مفزع أعداء الله حيث ينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، كما في قوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾(6).

وأما أولياء الله من المؤمنين فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع اليه أتباع الرسل فنجوا مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة، ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه(7).

ومن هنا كان الإعراض عن ذكر الله وتوحيده، لا يجلب إلا المعيشة الضنكا، والهم المتصل، والخوف الذي لا ينقطع. نسألك اللهم العفو والعافية، وعليه كان من حق الله عزّ وجلّ على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتدري ما حق الله على عباده؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً فقال أتدري ما

حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم ألا يعذبهم»(8).

وليست العبادة المقصودة في هذا الحديث محصورة في أشكال وطقوس معينة، كما هو الشأن في كثير من المعتقدات والفلسفات، وإنما هي إطار شامل، وسلوك متواصل، لا يتعلق بنظام دون آخر، بل يربو إلى أن يكون صلة بين العبد وربه، ويهبط إلى أن يكون إزالة للأذى من الطريق، وبمعنى آخر فإن العبودية الحقة هي أن يكون العبد مراقباً لله عزّ وجلّ في كل تصرف وسلوك سواء كان ذلك في السر أو في العلن. وقد كان لهذا التصور الواضح الأثر العميق في استقرار واطمئنان الوسط البيئي الإسلامي، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والصحي والتعليمي وغير ذلك من المجالات الإنسانية التي تخدم هذا الإنسان وترفع من شأنه، ولم تبد الشريعة يوماً من الأيام عجزها وتقصيرها، وهي التي استطاعت أن تستوعب دولتي الفرس والروم وأن تصقل المعاملات فيهما بالصبغة التوحيدية بعيداً عن عبادة النار أو القول فيهما بالثالوث، وما ذلك بأمر صعب المنال، لان جميع أحكامها وتشريعاتها تنطلق من الفطرة التي فطر الناس عليها.

ومن هنا كان التوحيد في حياة الأمة الإسلامية روحاً لجسدها، ودواء نافعاً لاسقامها وأوجاعها، بدونه لا تستطيع أن تستقر عافيتها، ولا أن تداني غيرها، وماذلك إلا بسبب الخلط الذي يصيب أطرافها وينتشر في مجتمعاتها وأصقاعها فتنحل رابطة العقد، وتتناثر اشلاؤها ممزقة هنا وهناك تدعو فلا يستجاب لها، وتسأل الناس فلا يعطها الله ولا الناس فتكون فريسة سهلة

لكل منافق ودخيل ومرتزق، كما هو شأنها في وقتنا الحاضر، ورحم الله الإمام البخاري فهو لم يكن جامع أحاديث فحسب، بل كان ذو فكر اجتماعي وأنه كان يخاطب الأمة بمقدمة صحيحة في كتابي الإيمان والعلم بما يرغبها في التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيهها وترهيبها مما هي عليه من مفاسد، فقد يفهم من سياق كتاب الايمان أن الإمام رضي عنه يرى أن للإيمان وظيفة اجتماعية، وأن المجتمع الإسلامي يجب أن يقوم على أساس من الإيمان، فإنه إذا قيل أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فإن ذلك يؤدي إلى عدم السعي والى القعود عن الطاعة وإن قيل أن الناس يكفرون بالمعاصي فإن ذلك يؤدي إلى ارفضاض الرابطة الاجتماعية، وانقضاض المسلمين على بعضهم، وكذلك عنى في الكتاب المذكور بتوكيد أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الناس لا يكفرون بالمعاصي، ثم رتب الأحاديث في ذلك الكتاب في شكل يشعر بأهمية العناصر النظامية السابقة، وأن الناس يجب أن يسود بينهم السلام لحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». وأن خير الإسلام إطعام الطعام وإفشاء السلام، ويكون لهم الرياسة الصالحة لحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه»، وحديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان»، وبين أساس القاعدة الموضوعية الأولى التي انشئت بها الدولة الإسلامية بحديث بيعة العقبة»[9].

ومما يضفي أهمية على موضوع التوحيد في حياة الإنسان المسلم أن ذلك التوحيد ليس مجرد نية أو شعور داخلي يساور المرء بين الحين والآخر، بل هو قول وفعل يزيد بالصالحات وينقص بالذنوب والآثام، مما يوجب على المسلم

أن يتحرى دائماً الموافقة الشرعية على جميع تصرفاته، ويشعر أنه بحق الخليفة الصالح لإعمار هذا الكون الذي سخره الله من أجله، ولا يمكن أن يتم له ذلك إلا بالربط بين عقيدته وواقعه الاجتماعي ربطاً دينياً، لا يفرق فيه بين العقيدة والمعاملات والعبادات، بل يشعر شعوراً لا مجال فيه لشك أنه لا يمكن أن يكتمل إيمانه وتوحيده إلا اذا أحسن أداء الجانبين الآخرين وكان ينطلق فيهما من خلال الأوامر والنواهي الالهية، وهذا ما يميز المنهج الإسلامي عن غيره من المناهج في المعالجات البيئية في هذه الحياة الدنيا المرتبطة بالآخرة مهما طال الزمن أو تغيرت الأماكن والظروف.

وفي اعتقادي أن هذا المعنى هو ما عناه محمد بن الحسن حين طلب منه أن يؤلف كتاباً في الزهد فقال: لقد ألفت كتاباً في البيوع، ومراده أنه أظهر من خلاله الحلال والحرام الذي هو أساس الزهد والابتعاد عن معصية الله عزّ وجلّ وبالنظر الفاحص الدقيق نجد أن تحريم الإسلام للحرام إنما منشؤه الرغبة في تجنب الأفراد والأمة كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالبيئة العامة والخاصة ويدمرها على أصحابها، بينما الحلال هو ما يجلب النفع العام والخاص ويحافظ على البيئة ودعوته إلى ذلك قبل ألف وخمسماية عام تقريباً، ولا أتصور حاجة هذه المعاني إلى دليل أو توثيق نظراً لكونها من المسلمات التي تتفق عليها العقول السليمة في شتى الأمصار والبقاع، إضافة إلى أن واقعنا المعاصر يؤكد صحة هذه الأمور من خلال ما نشاهده من نتائج مفجعة لإباحة الزنا واللواط والاختلاط كظهور الايدز والأمراض التي لم تكن في أسلافنا من قبل، والتي يقف الطب أمامها عاجزاً يعالج النتائج ولا يبحث عن

الأسباب والدواعي إليها، فتزداد مع الأيام أنواع الأمراض التي يكتشفها العلم يوماً بعد يوم، والعقلاء قد أغمضوا عيونهم عن ذلك نظراً لغياب الحكم الشرعي الذي يوجب على الحاكم أن يمنع كل حرام من المجتمع المسلم، وهو بذلك يجلب له العافية والسلامة من الشرور والبلايا التي يجلبها المرض وعدم الالتزام بأحكام الحلال والحرام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ النحل، آية97. وخرج ابن أبي الدنيا من حديث أنس مرفوعاً: لا تزال لا اله الا الله تمنع العباد من سخط الله، ما لم يؤثروا دنياهم على صفقة دينهم، فإذا آثروا دنياهم على دينهم، ثم قالوا: لا اله الا الله ردت عليهم وقال الله كذبتم(10).

هذا وتكاد تتفق الآراء على أن للدين هيمنة عامة على جميع مناحي الحياة، انطلاقاً من العادات والتقاليد وانتهاء بالآداب والموسيقى والنحت والتصوير، الأمر الذي يجعل العلاقة وطيدة بين الأرض والسماء، وحينما وجدت هذه العلاقة بالصورة التي لا تخالف العقل السليم، فإنك لا بد وأن تجد السعادة والطمأنينة والحياة الرغيدة بما يسود بين أفرادها من معتقدات وتشريعات تسمو بهم إلى مدارج الكمال والرفاهية.

فيظهر ذلك في أشعارهم وأدبهم وأسواقهم وعلاقاتهم الاجتماعية والدولية والإنسانية بصورة عامة، فإذا كان الأديب ذا دين مادي وثني جامد تأثر أدبه بعقليته، فخرج مثله مادياً جامداً، وإذا كان دينه ضيق المجال لاصقاً بالحجارة والأرض كان خياله في أدبه غالباً كذلك لان نفسية الإنسان وعقليته وحدة لا تتجزأ وإن اختلفت معانيها ومظاهرها، فاليونانيون الذين كانوا

يعبدون الأوثان مثل الجاهلية قد رفعوا الهتهم من الأرض إلى السماء، ومنحوها الحركة والحياة، وجعلوا للحب والجمال والشعر آلهة، وجعلوا أفروديت خلق من أمواج البحر وأولدوها اله الحب وجعلوا له جناحين ذهبيين، وجعلوه يحمل سهاماً حادة ومشاعل ملتهبة ونسجوا حول آلهتهم أساطير في منتهى الخصب في الخيال، والبعد في السماء والحركة في الحياة، وظلت هذه الخيالات والأساطير تسير سيرها وتعمل عملها في الحياة اليونانية حتى حولها الأدب إلى قصص وتمثيل، وحولها العقل إلى فلسفة[11].

البيئة المسلمة الي ينطلق فيها الأديب والكاتب والشاعر والعالم من شهادة لا اله الا الله توجد عند هؤلاء جميعاً إطاراً من التوازن البيئي يندرج تحته كل ما نجد في القرآن الكريم من أخلاق ومكرمات، تدعو إلى العدل وتحريم الظلم والعفو وكظم الغيظ والخلافة في الأرض والعمل على إعمارها، والتجاوز عن نكدها بنظرة لا تعرف التشاؤم ولا الانتقام والثأر بل تحيا بالايثار والحق والصبر، وهذه جميعاً إطار عام يحكم حياة المسلمين ويوجههم إلى طريق النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، خاصة وأنهم يقرأون في كتاب ربهم قوله سبحانه: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[12]، وهذا تقرير رباني أن قمة الفساد البيئي أن يصل الشعب إلى الترف وأن يجانب الحق والصواب بفسقه ومعاصيه، وفي اعتقادي أن هذه سنة عامة في بقاء الأمم وهلاكها، والمتصفح لتاريخ الحضارات القديمة كالفرعونية واليونانية والبيزنطية يلاحظ مدى صحة هذه القاعدة حيث انّ شواهد حضاراتهم وترفهم وفسوقهم ما

تزال بادية للعيان إلى يومنا هذا مع مرور آلاف السنين عليها، وحيث من المفروض أن تكون دلائل اتعاظ واعتبار بدلاً من أن تكون أماكن لهو وفجور ليل نهار، ولا بد في مثل هذه الحالات من إنماء الشعور والحس الديني عند الناس ليتمكن المجتمع من إعادة بنائه البيئي بصورة صحيحة تنقي جميع الشوائد والمستجدات الطارئة التي تعكر صفو منهجه ونقائه، ألا ترى أن الطائر اذا لم يجد الغصون الناضرة، والأزهار اليانعة لم يستطع أن يعيش فضلاً عن أن يغني وكذلك الشعور بالجمال والتغني به إنما يأتي بعد الطمأنينة على العيش والحصول على القوت[13].

ثانياً: قاعدة لا ضرر ولا ضرار

وهي من جوامع كلم الرسول عليه الصلاة والسلام التي أصلها من الظلم الذي هو وضع الشيء في غير موضعه وأخذه من غير وجهه، ومن أضر بأخيه المسلم أو بمن له ذمة فقد ظلمه، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ثبت في الأثر الصحيح. وقد ذكر العلماء فرقاً بين الضرر والضرار مفاده أن الضرر هو أن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع به والضرار أن يدخل على غيره ضرراً بما لا منفعة له به كمن منع ما لا يضره ويتضرر به الممنوع، وقيل الضرر أن يضر والضرار أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز وهذا على نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». قال الخشني: الضرر الذي لك فيه منفعة، وعلى جارك فيه مضرة، والضرار الذي ليس لك فيه منفعة، وعلى جارك فيه المضرة[14].

وقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ قوله: ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾[15]، وقوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار﴾[16]، وقوله أيضاً: ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾[17]. وهذا لا يمنع الانتصار من الظالم بما يسمح به السلطان دون أن يكون هناك زيادة في العقوبة عما وقع على المظلوم من الظلم، وقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ قوله: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾[18]. ونظراً لما بين الانتصار للنفس من الظلم وبين الضرار من مداخلة فإن الذي يصح في النظر ويثبت في الأصول كما يقول ابن عبدالبر

هو أنه ليس لأحد أن يضر بأحد سواء أضر به قبل أم لا إلا أن له أن ينتصر ويعاقب أن قدر بما أبيح له من السلطان والاعتداء بالحق الذي له هو مثل ما اعتدى به عليه[19].

وتظهر أهمية هذه القاعدة في ارساء المفاهيم البيئية السليمة من خلال تصورنا لمدى ما يمكن أن تعالجه من قضايا ومشاكل سواء في حياتنا الاجتماعية بما يكون بين الزوجين أو بما يتم بيننا من بيوع ومعاملات، وسواء كان ذلك في تصرفاتك مع الآخرين أو في تصرفاتك في ملكك، بما يمكن أن يحقق لك من المصلحة أو الفائدة، فنحن جميعاً نعرف بأن إصلاح ذات البين هو أساس البناء القويم السليم. وأن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين، وإذا انعدم الدين وما يتفرع عنه من تقوى وزهد وإيثار ومحبة وأخاء فإن البيئة ستنقلب إلى جحيم لا يطاق في ظل الأنانية والظلم والكراهية، والنميمة والتجسس والتفرق والشتات، وقد ذكر العلماء من التفريعات ما فيه غنى عن الاجتهاد في هذا المجال، فذكروا الزيادة في الوصية عن الثلث أو الطلاق بطلقة بعد الرجعية قبل انتهاء العدة بقليل في طهر لا يمسها فيه، والايلاء والزيادة في أجرة الرضاع من قبل المطلقة في إرضاعها لولدها. وبيع المضطر وبيع المسترسل الذي لا يحسن المماكسة والمساومة أو صنع أمر في ملكه يعود بالضرر المبين على جاره كأن يحفر بئراً فتنقطع ماء جاره أو يبني بيتاً فتسد طريق الهواء عليه، وغير ذلك كثير مما سنذكره بعد أن شاء الله، يقول ابن رجب رحمه الله: ومما يدخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم لا ضرر أن الله لم يكلف عباده فعل ما يضرهم

البتة، فإن ما يأمرهم به هو عين صلاح دينهم ودنياهم، وما نهاهم عنه هو عين فساد دينهم ودنياهم، لكنه لم يأمر عباده بشيء وهو ضار لهم في أبدانهم أيضاً ولهذا أسقط الطهارة بالماء عن المريض، وأسقط الصيام عن المريض والمسافر، وأسقط اجتناب محظورات الإحرام كالحلق ونحوه عمن كان مريضاً، أو به أذى من رأسه وأمر بالفدية، وفي هذا المعنى ما في الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يمشي، قيل أنه نذر أن يحج ماشياً، فقال: إن الله لغني عن مشيه ليركب، وفي رواية أن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه[20].

كما يدخل في هذا المجال قطع أكبر الضررين الحاصلين كمن فتح كوة يطلع فيها على دار أخيه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء في بيوتهن القاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهن، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرم قد ورد فيه النهي، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل اطلع عليه من خلال باب داره لو علمت أنك تنظر لفقأت عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر، ولذلك رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الكوة والباب ما فتح ماله فيه منفعة وراحة وفي غلقه عليه ضرر لانهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين[21]. ويلحق بهذا الضرر في المنع ما ذكره العلماء من دخان الفرن والحمام، وغبار الكسارات والمناشير في وقتنا الحاضر والدود المتولد في الازبال المتراكمة، مع الروائح الكريهة المنبعثة من مزارع الدواجن، أو الابقار والأغنام أو مصانع الدباغة أو مكبات القمامة ومصبات المجاري في البحار أو محطات التكرير أو ما شابهها مما فيه إذاية

وكان بين المناطق السكنية المأهولة، فإن على الدولة أن تخرج هذه جميعاً إلى مناطق بعيدة بحيث لا يتأذى بها أحد من البشر ولا تؤثر على ما يمكن أن يلحق بانسان أو حيوان أذى من قريب أو بعيد، وكم تكون الدولة قد أحسنت إذا استطاعت أن تفرض على المدخنين عدم التدخين في الأماكن العامة وفي وسائط النقل والأسواق، حتى لا ينتقل أذاهم إلى حناجر وأجسام غيرهم قسراً وعلى غير إرادة من الطرفين، كما أنها تحسن أكثر حين تلاحق السيارات ذات الدخان الأسود الناتج عن خراب في المحرك، وعن عدم الاحتراق الكامل في غرفة الاحتراق، وتفرض على أصحابها إصلاحها أو منعهم نهائياً مع فرض العقوبات التي قد تصل إلى مصادرة تلك السيارة إن تكرر ذلك وأصر صاحبها على إلحاق الضرر والأذى بالآخرين، خاصة وأن السيارات لا يمكن حصر سيرها في المناطق الخالية من الناس كما هو الشأن في المصانع التي يمكن أن يتم نقلها إلى خارج المناطق السكنية وإبعاد ما ينتج عنها من أضرار تلحق العامة مع ما فيها من أضرار قد تلحق أصحابها، ولكن الضرر الخاص لا يمكن أن يزال بالضرر العام وعلى العموم فإن الشريعة الإسلامية راعت إزالة الضرر كيفما كان إذا لم تكن إزالته تجلب ضرراً أكبر منه.

وجعلت من أطرها وقواعدها درء المفسدة مقدماً على جلب المصلحة، حتى في أخص خصوصيات المرء المسلم، فقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن امرأة عرض لها يعني مساً من الجن فكانت إذا أصابها زوجها أو جنبت اودنا منها اشتد ذلك بها، فقال مالك: لا أرى أن يقربها وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها[22]. وقد تنبه المسلمون الأوائل إلى هذا الجانب المهم في

حياتهم الدنيوية والأخروية، فأحدثوا في دولتهم وظيفة لم يسبقوا إليها من قبل ولم تعمل بها دولة من بعد إلا وهي وظيفة الحسبة والتي كان يعرف متوليها بالمحتسب، فقد لعبت هذه الوظيفة دوراً مهماً في إيجاد البيئة الصالحة وحالت دون انتشار الأوبئة والآفات، وقلمت أظافر الظلم والظالمين، ووضعت حاجزاً كبيراً أمام كل من تسول له نفسه بالإفساد أو الإضرار بالآخرين، فعاشت الدولة والناس فيها على خير صورة يطمع فيها القاصي والداني، والدارس للكتب المؤلفة عن الحسبة في الإسلام لا يملك إلا أن يقف إجلالاً واحتراماً لذلك النظام البيئي الدقيق الذي لم يهمل صغيرة ولا كبيرة من حسبانه في سبيل ايجاد الطمأنينة والسعادة والراحة النفسية عند الأفراد والأمة بأسرها.

والمتصفح لما اشتملت عليه كتب الحسبة من تنبيهات عامة وارشادات كانت في غالبيتها حول التاريخ الاجتماعي والعلاقات العامة التي تربط الأفراد بعضهم ببعض أو تربطهم بصنائعهم التي يحتاج إليها الناس، فإنه يلاحظ مدى الضبط والربط الذي كان يحكم به المجتمع المسلم في عصوره الزاهرة، دون أن يشكل ذلك عبئاً على الدولة أو على المواطن لأن الحسبة كانت على الحكام والأمراء والولاة كما كانت على الأفراد من الرعية، ومع أن المحتسب هيمن في وظيفته على أكثر من أربعين ناحية من نواحي الحياة اليومية إلا أن مظاهر الحياة الاجتماعية كان لها قصب السبق في هذه المجالات المختلفة، حتى أن المحتسب كان يراقب استخدام النساء في تنظيف القطن والكتان على أبواب الحوانيت والطرقات، وكذلك جلوسهن على أبواب

بيوتهن في طرقات الرجال، سيما إذا رأى رجلاً أجنبياً مع امرأة أجنبية يتحدثان في موضع خلوة كما كان يراقب الإسكافي في صناعة أحذية النساء خشية أن يضع فيها من الكرتون المقوى الذي يجعل لخفافهن صوتاً عند المشي فيه كما كانت تفعل نساء بغداد[23].

وكان عليه أن يمنع تبرج النساء بأنواع الزينة البادية وأسباب التجمل الظاهرة على حال اختيال في المشي واستعمال منتشر الطيب واستظهار ما يستدعي الفتنة، قال في الإكمال شرط العلماء في خروجهن أن يكون بليل غير متزينات ولا متطيبات ولا مزاحمات للرجال ولا شابةً خشية الفتنة وقال بعض الشيوخ وفي معنى الطيب اشتمالهن بالملاحف ومليح الاكسية وكان ابن عرفة رحمه الله يفتي بمنعهن من الخروج إلى مجالس العلم والذكر والوعظ وإن كن منعزلات عن الرجال[24].

وقد فصل هذا الأمر أجمل تفصيل الإمام ابن قيم الجوزية حين قال: ويجب على الإمام منع النساء من الخروج متزينات متجملات، ومنعهن من الثياب التي يكن بها كاسيات عاريات، كالثياب الواسعة والرقاق، ومنعهن من حديث الرجال في الطرقات ومنع الرجال من ذلك، وإن رأى ولي الأمر أن يفسد على المرأة - إذا تجلمت وتزينت وطرحت ثيابها بحبر ونحوه، فقد رخص في ذلك بعض الفقهاء وأصاب، وهذا من أدنى عقوبتهن المالية، ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد الأمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من

أسباب الموت العام، والطواعين المتصلة، ولما اختلط البغايا بعسكر موسى، وفشت فيهم الفاحشة، أرسل الله عليهم الطاعون، فمات في يوم واحد سبعون ألفاً، والقصة مشهورة في كتب التفاسير فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات، ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية -قبل الدين- لكانوا أشد شيء منعاً لذلك. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إذا ظهر الزنا في قرية أذن الله بهلاكها[25].

وهذا وغيره يبين حكمة الله عزّ وجلّ في نهيه لعباده عن اقتراب الزنا عدى إتيانه، وذلك لما فيه من أضرار تلحق بالزاني والزانية والذرية والمجتمع وأخلاقياته، والصحة العامة فيه، حيث أن كثيراً من الأمراض المعدية والفتاكة تنشأ عن هذه الجريمة التي أشار فيها الله عزّ وجلّ إلى المرأة ودورها المميز حين كانت المرة الوحيدة في كتاب الله التي تقدم فيها المرأة على الرجل، وما ذلك إلا لكون الزنا في النساء أعر وهو لأجل الحبل أضر، وقيل لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب، فصدّرها تغليظاً لتردع شهوتها، وإن كان قد ركّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله وأيضاً فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً[26].

ومن هذا يتبين لنا أثر البيئة الاجتماعية، على الفطرة الإنسانية فبيئة الإيمان تعكس آثارها الصالحة، وبيئة الكفر والفسوق والفجور والتمرد على الله لها آثارها السيئة، لذا أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بالجليس الصالح وبالحذر من جليس السوء، كما أكدا لإسلام غاية التأكيد على البيئة

الصالحة في نماء النفس الإنسانية، بل إن رسالته الأساسية هي خلق البيئة الصالحة التي تليق بالإنسان المكرم على الله، والإنسان هو المكلف بهذه المهمة الضخمة لذا كان الحرص على انتقاء البيئة الجيدة، الزوجة الصالحة، لتكون شريكة الحياة ومربية الجيل والحرص على صلاح البيت موطن حياة الأسرة، نواة المجتمع ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾[27].

ونظراً لما تحتله المرأة من مكانة في الحياة الاجتماعية، فإن الإسلام أكد وبشدة على ضرورة قيامها بما أنيط بها وفق الأحكام الشرعية التي راعت أنوثتها وضعفها دون أن تهمل إمكاناتها العقلية والمادية والجسمانية، وقد يكون هذا هو سر العناية الفائقة التي تظهرها النصوص الشرعية بالمرأة، سواء كان ذلك في الايات القرآنية أو الأحاديث النبوية، فليس هناك من موضوع اشتمل على تفصيلات وبيان شامل في كتاب الله أكثر مما يتعلق بالزواج والطلاق والظهار والإيلاء والخلع، والحقوق المشتركة بين الزوجين، وواجب الآباء في تربية الأبناء، وما على الأبناء تجاه الآباء، وغير ذلك من المواضيع التي جعلت من المرأة في التصور الإسلامي قمة الهرم الحضاري، وسبب كل رفعة أو سقوط، وقد تكاد تكون هذه النظرة شاملة ومتفقاً عليها في غالب الحضارات والثقافات الإنسانية، بغض النظر عن مصادرها وزمانها ومكانها، وما الصرخات المدوية التي يطلقها المصلحون بين الحين والآخر في الغرب إلا خير شاهد على ذلك. وهي في حد ذاتها رجعة إلى المنظور الإسلامي الصحيح الذي يجعل من المرأة جوهرة محاطة بكل أشكال الحراسة التي

تحميها من المؤثرات الخارجية دون أن تمس ذاتها أو تخدش شعورها من قريب أو بعيد، ذلك المنظور الذي يرفض بأي شكل من الأشكال أن تكون المرأة سلعة وعرضاً من العروض يسومها كل رخيص ومفلس ونظراً لسعة صلاحيات المحتسب في هذا الباب وغيره، والتي كان يقصد منها جميعاً المحافظة على البيئة العامة والخاصة نظيفة من كل الشوائب، فإنني سوف أقتصر على ذكر بعض المسائل لاطلاع القارىء الكريم على مدى شمولية النظرة الإسلامية منذ القديم وحرصها على أبعاد كل أذى وضرر يمكن أن يلحق بالأفراد أو بالجماعات، سواء كان ذلك الضر في أجسامهم أو في مواقعهم أو في محيطهم، مما هو مشهور اليوم بتلوث البيئة وعدم صلاحيتها لحياة طيبة تحفظ على الإنسان دينه وصحته وسلامة أعضائه من كل مرض خبيث عضال.

أ: الأسواق والطرقات

حظيت الأسواق والطرقات برعاية كبيرة في التشريعات البيئية الإسلامية سواء كان ذلك من حيث بناؤها أو أماكن إقامتها أو ما يجوز إدخاله إليها ومالا يجوز، فذكر ابن بسام في نهاية الرتبة أنه ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديماً، ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي لأنه عدوان وتضيق على المارة فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله لما في ذلك من إلحاق الضرر بالناس، ويجعل لكل صنعة سوقاً يختص بهم تعرف به صناعتهم، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والجردقاني فعلى المحتسب أن يبعد حوانيتهم عن البزازين والعطارين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار، وينبغي أن يمنع أحمال الحطب والحلفاء وأحمال التبن وروايا الماء والرماد وما أشبه ذلك من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر بلباس الناس، ويأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ وغير ذلك مما يضر بالناس فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا ضرر ولا ضرار»(28).

وكما يجب تطهير الأسواق من الآفات وتنظيفها من الأوساخ، فإنه يجب إزالة ما يمكن أن يقع فيها من المخالفات الشرعية كالنجش والاحتكار وتلقي الركبان والنظر في المكاييل والزام الطحانين غربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الزوان وتنظيفها من الغبار، ومنع الاضراع وأهل الكدية المقنفين عن قراءة القرآن في الأسواق للكدية(29).

وعرض ما هو محرم من المأكولات أو المشروبات، فقد ورد في المسند عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبدالله بن عمر أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آتيه بمدية، فأتيت بها، فأرسل بها فأرهفت، ثم أعطانيها، وقال: أغد علي بها ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق خمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية مني، فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها، فلا أجد زق خمر إلا شققته، ففعلت فلم أترك فيها زقاً إلا شققته، وحدثني الليث أن عمر بن الخطاب حرق بيت رويشد الثقفي لأنه كان يبيع الخمر، وقال له: أنت فويسق ولست برويشد[30]، وإذا تكررت خيانة رجل من أهل السوق أدبه المحتسب، فقد روي أن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أمر بضرب رجل وجب عليه الحد، فقال له وهو يضربه: قتلتني يا أمير المؤمنين فقال له: الحق قتلك، قال: فارحمني، قال: لست أرحم بك ممن أوجب عليك الحد، فإن عاد إلى الخيانة أقامه من السوق[31]، وقد أدرك ولاة الأمر من المسلمين السابقين أهمية السوق في حياة المجتمع المسلم، فأولوه عناية فائقة، فإن فقيه المغرب وقاضيها الكبير سحنون كان أول أمر نظر فيه هو السوق حيث كان ينظر فيها الولاة دون القضاة، فنظر فيما يصلح من المعايش وما يغش من السلع، ويجعل الأمناء على ذلك ويؤدب على الغش، وينفي من الأسواق من يستحق ذلك، وهو أول من نظر في الحسبة من القضاة، وأمر الناس بتغيير المنكر، وأول القضاة فرق حلق أهل البدع من الجامع، وشرد أهل الأهواء منه، وكانوا فيه حلقاً من

الصفرية والأباضية والمعتزلة، وكانوا فيه حلقاً يتناظرون به ويظهرون زيغهم، وعزلهم عن أن يكونوا أئمة الناس، أو معلمين لصبيانهم، أو مؤذنين، وأمرهم ألا يجتمعوا، وأدب جماعة منهم بعد هذا خالفوا أمره، وأطافهم وتوب جماعة منهم، فكان يقيم من أظهر التوبة منهم على البر أو غيره، فيعلق توبته عن بدعته، وكتب مراراً أي سحنون يأمر بقتل الكلاب وبث وراءها الأعوان بالحراب[32]. هذا ومن كان في السوق من التجار أو الصناع الذين لا تقوم صنعتهم إلا مع وجود الضجيج والأصوات المرتفعة، فإن على المحتسب أن يأمر بترحيله إلى منطقة أخرى لا يتضرر فيها أحد، ولم يعتبر الفقهاء طول مدة بقائهم في هذا المكان سبباً شرعياً لايقاع الضرر على الجيران أو المارة أو طلبة العلم أو المرضى في المستشفيات حيث أن إزالة الضرر العام أولى من إزالة الضرر الخاص، وعليه فإن جميع الحدادين والنجارين وأصحاب المهن التي يصدر منها ازعاج يؤذي ويقلق يجب على الدولة أن ترحلهم إلى أماكن بعيدة، وبخاصة إذا كانت تلك الصنائع تصدر دخاناً أو غباراً أو غازات سامة تؤثر على الماء أو الهواء أو الأرض والكلأ، أو الأثمار والخضروات مما له علاقة مباشرة بالإنسان وصحته العامة، وقد روى أقضى القضاة ابو القاسم الماوردي في سياق بيان سعة صلاحيات المحتسب أن ابراهيم بن بطحاء كان محتسباً ببغداد، وأنه مرّ يوماً على قاضي القضاة أبي عمر وقد ارتفع النهار وقد كثر الخصم عند الدار ينتظرون خروجه، وقد حميت عليهم الشمس، فاستدعى حاجبيه وقال: عرف القاضي بكثرة الخصم، وتأذيهم بطول الانتظار، وارتفاع النهار، فيخرج إليهم ويقضي بينهم وإن كان عليه عذر عرفهم، وكشف ما بهم من الأذى[33].

وأما الطرقات وأزقة الحارات فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره إلى الممر المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية وإضرار على السالكين كمجاري الأوساخ الخارجة من الدار في زمن الصيف إلى وسط الطريق، فإنه يكلف بسده في الصيف ويحفر له حفرة في داره تجمع فيها[34].

وذكر ابن قدامة المقدسي في المغني أنه لا يجوز أن يشرع إلى طريق نافذ جناحاً وهو الروشن، يكون على أطراف خشبة مدفونة في الحائط وأطرافها خارجة في الطريق، سواء كان ذلك يضر في العادة بالمارة أو لا يضر ولا يجوز أن يضع عليها ساباطاً بطريق الأولى، وهو المستوفي لهواء الطريق كله على حائطين، سواء كان الحائطان ملكه أو لم يكونا، وسواء أذن الإمام في ذلك أو لم يأذن ويفارق المرور في الطريق فإنها جعلت لذلك ولا مضرة فيه، والجلوس لا يدوم ولا يمكن التحرز منه، ولا نسلم انه لا مضرة فيه، فإنه يظلم الطريق ويسد الضوء، وربما سقط على المارة أو سقط منه شيء، وقد تعلوا الأرض بمرور الزمان فيصدم رؤوس الناس ويمنع مرور الدواب بالأحمال ويقطع الطريق إلا على الماشي، وقد رأينا من هذا كثيراً، وما يفضي إلى الضرر في ثاني الحال يجب المنع منه في ابتدائه، كما لو أراد بناء حائط مائل إلى الطريق يخشى وقوعه على من يمر فيها[35]، ويجب الضمان بالسبب كما ويجب بالمباشرة فإذا حفر بئراً في طريقه لغير مصلحة المسلمين أو في ملك غيره بغير إذنه أو وضع في ذلك حجراً أو حديدة أو صب فيه ماء أو وضع فيه قشر بطيخ أو نحوه وهلك فيه إنسان أو دابة ضمنه بأنه تلف بعد وانه فضمنه كما لو جنى عليه، وحكم البناء في الطريق حكم الحفر فيها، وهو أنه متى بنى

بناء يضر إما لكونه في طريق ضيق، أو في واسع يضر بالمارة، أو بنى لنفسه فقد تعدى ويضمن ما تلف به، وإذا بالت دابته على طريق فزلق به حيوان فمات به فقال أصحابنا، على صاحب الدابة الضمان، إذا كان راكباً لها أو قائداً أو سائقاً لأنه تلف حصل من جهة دابته التي يده عليها، فأشبه ما لو جنت بيدها أو فمها[36].

وروى الإمام الباجي أن من أصل مذهب مالك رضي الله عنه أن الطريق الشارع للمسلمين جائز للرجل أن يفتح فيه في جداره باباً وكذلك له إخراج حافة إليه، وإن كان من السكك غير النافذة منع من ذلك اذا لم يتركه جيرانه[37]، وهذا بلا شك فيما اذا لم يكن ذلك الماء وسخاً أو متجمعاً في وسط الشارع مما قد يؤذي المارة أو الجيران، وإنما المقصود به- والله أعلم- ماء الشتاء المتجمع على سطوح المنازل من المطر الغزير، فقد ذكر الونشريسي في المعيار تحت قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»، أنه لا يجوز لأحد أن يحدث في طريق المسلمين ما يضر بهم في ممرهم وتصرفهم، وعليه فيه حرج ومشقة، وينهى عنه أشد النهي ويجب على من بسط الله يده من حكام المسلمين زجره عن ذلك، فإن لم ينته عاقبه عقوبة يرجع بها عن فعله ولا يسامح بمثل هذا[38]. وقد روى القاضي عياض أن محمد بن محمد الطرزي مرّ يوماً بدار ابن زرقون إمام الجامع والماء يخرج من قناة داره، فقال له: قد أذيت المسلمين بما يخرج من دارك، فقال له: قد وقع في بئرنا فأر وطهرناه، فقال: نجس أيضاً، فحبسه في المسجد فلما حانت الصلاة أطلقه، وقال له: لولا أنك الإمام لما أطلقتك[39].

ويكفي أن نشير في حق الطريق إلى ما ذكره الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، حين نهى المسلمين عن الجلوس في الطرقات، لأن الجالس قلما سلم من رؤية ما يكره أو سماع ما لا يحل والاطلاع على العورات، ومعاينة المنكرات، وغير ذلك مما قد يضعف القاعد عليها من إزالته وقيل أن النهي هنا للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء هذه الحقوق واحتج به من قال أن سد الذرائع أولوي لا لزومي لأنه أولاً نهى عن الجلوس حسماً للمارة فلما قالوا لا بد لنا منه، فسمح لهم فيه بشرط أن يعطوا الطريق حقها، ذلك الحق الذي بينه الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله: «إياكم والجلوس على الطرقات، فإن أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها، غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وزاد أبو داود وارشاد السبيل والطبراني وإغاثة الملهوف، وإضافة إلى هذا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد نهانا عن النزول آخر الليل في الطريق أو في جنباتها لكونها مأوى الأفاعي والحيات والسباع وقضاء الحاجة حيث قال: «إياكم والتعريش على جواد الطريق والصلاة عليها، فإنها مأوى الحيات والسباع وقضاء الحاجة عليها، فإنها الملاعن»(40).

وقد حرص المسلمون منذ اللحظة الأولى بتوجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام وعملوا على أن تكون طرقهم آمنة بعيدة عن كل المخاطر، فبنوا القلاع والحصون وجندوا الدوريات من أجل حماية طرق القوافل التجارية والحج، كما عملوا على توفير جميع المتطلبات من الماء والغذاء ولم تكن الصحراء أو المسافة البعيدة حائلاً دون تحقيق ذلك، فهذه زوجة الرشيد

زبيدة أدخلت الماء إلى الحرم الشريف بعد امتناعه وتعسره، وبنت في طريق مكة والمدينة بركاً ومصانع وآبار كثيرة[41]، ما زالت آثارها شاهدة للعيان، وقد أطلقها الفاروق عمر رحمه الله بكل صراحة حين قال: لو عثرت بغلة في العراق لخشيت أن يحاسبني الله على ذلك لِمَ لَمْ أسهل لها الطريق، وهذا هو الطابع الذي أضفاه المسلمون على مدنهم الجديدة بعد أن فتح الله عليهم بلاد الروم وفارس، وتعتبر البصرة والكوفة وسامراء من الشواهد الباقية على اعتنائهم بالطرق والتنظيم والبيئة، ولم تكن الأسواق أقل اهتماماً بها من الطرقات، من حيث مراقبة الأسعار والباعة والغش والاحتكار ووضع الحراس عليها في الليل خشية السرقات ومداهمة اللصوص، وبذلك كانت الدولة الإسلامية ترفل في ثبات الطمأنينة والعيش الرغد.

وقد روى ابن الأثير وغيره من المؤرخين عند حديثهم عن سبب بناء الكوفة أن سعداً أرسل وفداً إلى عمر لإخباره بما فتح الله عليه، وبخاصة الاستيلاء على المدائن عاصمة دولة الفرس، فلما رآهم عمر سألهم عن تغير ألوانهم وحالهم فقالوا: وخومة البلاد غيرتنا فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلاً ينزله الناس، وقيل بل كتب حذيفة إلى عمر أن العرب قد رقت بطونها، وجفت أعضادها، وتغيرت ألوانها، وكان مع سعد، فكتب عمر إلى سعد، أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه سعد: إن الذي غيرهم وخومة البلاد، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فكتب إليه عمر، أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى

يأتي الأنبار، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة[42].

وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغط في سبات عميق في قرونها الوسطى وقد مزقتها الشعوبية وحرمتها من كل مظاهر التقدم والحضارة وما يترتب عليه من وعي بيئي وعمراني وصناعي وزراعي فإن غرناطة وقرطبة وأشبيلية في الأندلس قد عرفت نظام الري وقنوات المياه، والماء النظيف والماء الفاسد الذي يخرج من الديار قبل أن تعرفه برلين وموسكو وواشنطن وباريس ولندن وغيرها من العواصم الأوروبية، كما أن شوارع المدن الإسلامية كانت مضاءة، كل شارع فيه مصابيح تضيء الطريق في الليل علقت على أعمدة وكانت تغسل شوارعها المعبدة بانتظام، وكان الوقوف منظماً بالأرقام، وإذا لم تكن السيارات موجودة في ذلك الوقت، فقد كانت هناك عربات النقل التي تجرها الحيوانات، والحيوانات نفسها، ومن لم تكن لديه عربة فعلى الأقل كان لديه حيوان، وعندما يأتي أحدهم إلى السوق يجد أماكن منظمة مرقمة وبالتوقيت خاصة بالوقوف، هذا موجود في أي كتاب تاريخي هام وفي كتب الحسبة أيضاً[43].

وتظهر هذه النصوص الفقه المروري الذي نما وترعرع في الدولة الإسلامية التي أدركت قيمة الطريق حرباً وسلماً، وعملت على وضع استراتيجية شاملة ضمت أغلب المدن ومراكز الاشعاع الحضاري في الدولة الإسلامية، وعليه كانت الطرق واسعة سهلة لا يحول بينها بحر ولا تحتاج إلى جسور، إضافة إلى التنظيم الداخلي والخارجي.

ورحم الله ابن خلدون الناقد الاجتماعي، والعالم البيئي الذي ضمّن مقدمته الشيء الكثير مما يدور حوله البحث اليوم من متطلبات عدم التلوث وسلامة البيئة العامة سواء كان ذلك في إنشاء المدن وطرقها وأسواقها أو في ما يتبع ذلك من ترف يكون علامة الفساد والانحلال الذي هو أكبر معول في هدم الحضارات بصورة عامة، والجدير بذكره هنا أن ابن خلدون قد أولى السوق أهمية كبيرة وربط بينها وبين الحضارة، لكنها اي السوق- المرآة التي ترى فيها أعمال وصنائع الناس على المستوى الفردي والجماعي، خاصة وأنها تشتمل على حاجات الناس الضرورية كالأقوات وما في معناها والحاجية والكمالية، وبقدر ما يكون نفاق الأسواق يكون سلطان الدولة وجبايتها وتفننها في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار، ويرى ابن خلدون أن المصر كثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته، ثم تزيدها المكوس غلاء، لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها وهو زمن وضع المكوس في الدولة لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم، والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء، لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة، وتخرج عن القصد إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون في الأملاق والخاصة، ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للمبائع فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة، وداعية ذلك كله

إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران، وإما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب، وغلب عليه خلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات، وإذا كثر ذلك في المدينة والأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ ووجهه حينئذ أن مكاسبهم لا تفي بحاجاتهم لكثرة الفوائد ومطالب النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم، وإذا فسدت أحوال الاشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت(44).

ولا شك في أن الحسبة في الإسلام كانت الضابط الذي يحول دون انتشار مثل هذه الأخلاق، والتصرفات التي تجلب سخط الله، وتفسح المجال أمام المترفين لإشباع نزواتهم وملء بطونهم على حساب جماعة المسلمين، وفي الوقت الذي بعد فيه العهد بالدين وغلبت فيه طبيعة الملك والنفس الأمارة بالسوء، واتخذ الناس الخدم والجواري، وتطاولوا في البنيان والمصانع، ومالوا إلى الدعة والراحة، فإن العهد كان قريباً بانقراض الدولة وزوال هيبتها وسيطرة الأعداء عليها، وبخاصة اذا علمنا بأن سيدنا عمر رضي

الله عنه حين أمر ببناء الكوفة والبصرة بنيا من القصب، ولما وقع الحريق فيهما واستأذنوه في البناء بالحجارة والطوب قال: افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة وعهد إلى الوفد، وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد[45].

فبهذه التعليمات، وبالنفوس القانعة التي تعودت الايثار والحب للغير مثل ما تحب لنفسها استطاعت الدولة الإسلامية أن توجد البيئة الصالحة في كل جانب من جوانب حياتها، دون أن تجد في ذلك مشقة أو عناء، أو معارضة جماهيرية لا من المسلمين أنفسهم ولا من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون داخل الدولة وتحت ظلالها.

ب - الطعام والشراب

حيث أنهما مما يستوي فيه العامة والخاصة من حيث الحاجة إليهما ولكن الاختلاف فيهما يعود إلى الجودة والرداءة، القلة والكثرة، والنظافة والعفن وما إلى ذلك مما يؤثر على النفس والأعضاء، بالصحة والمرض، والراحة أو التعب، وقد بينت السنة النبوية أنه ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، ثم بينت الطريقة المثلى للمحافظة على الصحة والعافية، حين جعلت ثلثاً للطعام وثلثاً للشراب وثلثاً للنفس، وإذا ما علمنا بأن الطعام والشراب يتكرر في كل يوم وليلة، فإننا ندرك مدى ضرورة الاعتناء بهما للمحافظة على الأفراد والجماعات، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال ضوابط تحول دون تلاعب الأشرار بمصادر الأطعمة والأشربة، وهذا ما حرص عليه نظام الحسبة في الإسلام فوضع الرقابة على الخبازين والفرانين والجزارين والبقالين وصناع الحلوى وسقائي الماء وغير ذلك من الصيادلة والعشابين، والطحانين ومن شابههم ممن لهم علاقة بالطعام والشراب.

فطالب الخبازين بمسح داخل التنور إذا أحموه وشرعوا في الخبز، وبنظافة أوعية الماء وتغطيتها ونظافة المعاجن وما يغطي به الخبز، وما يفرش تحته، ولا يعجن عجان بقديمه ولا بركبتيه ولا بمرافقه، لئلاً تنحدر أعراق أبدانهم في العجين، وفي ذلك أيضاً احتقار بالطعام، ويكون العجان متلثماً لئلا يبدر من بصاقه أو مخاطه شيء في العجين إذا تكلم أو عطس، ولا يعجن إلا عليه ملعبه (ثو ب بغير كم) أو ثوب مقطوع الأكمام ويشد جبينه بعصابة بيضاء لتمنع عرقه أن يقطر، ويحلق شعر ذراعيه كل قليل، وإذا عجن في

النهار فليكن عنده من ينش عنه الذباب ، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمنخل الصفيق ويؤمرون ألا يخبزوا خبزاً حتى يخمر ، فإن غير الخمير يثقل في الميزان ويثقل في المعدة، وكذلك اذا كان قليل الملح فإنهم يقصدون بذلك ثقله ووزانته وإذا لم ينضج الخبز أدب الخباز والفران جميعاً، لأن الخباز اذا أمر الفران ائتمر ، وينبغي لهم أن ينشروا على وجهه الأبازير الطيبة الصالحة له مثل الكمون الأبيض والشونيز والسمسم والمصطكي ونحو ذلك، والمصلحة أن يجعل على كل حانوت وظيفة يخبزونها كل يوم لئلا يختل البلد عند قلة الخبز ويلزمهم ذلك أن امتنعوا عنه(46).

ونظراً لعظم حاجة الناس إلى الفرانين فإن على المحتسب أن يوزعهم على أطراف البلد وضواحيها وأن يأمرهم بإصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة، من اللباب المحترق والشرر المتطاير، والرماد المتناثر، لئلا يلتصق في أسفل الخبز منه شيء، وينبغي أن يكون له مخبزان أحدهما للخبز والآخر للسمك، فاذا شوا سمكاً ولحماً وشموا رائحته أخذ منه قطعة بحضور صاحبه ويجعلها تحت يده لمن يأتي إليه ويطالبه بالرائحة من النساء الحوامل(47).

هذا ويؤمر قلاؤو السمك بغسل قفاقهم وأطباقهم التي يحملون بها السمك وينثرون فيها الملح المسحوق كل ليلة بعد الغسل، لأنهم أن غفلوا عن غسلها فاح نتنها وكثر وسخها، فاذا وضع فيها السمك الطري تغير ريحه وفسد طعمه، ومثلهم صناع الزلابية فإن عليهم أن ينظفوا المقلى اذا كان من النحاس الأحمر فيحرقون فيه النخالة ثم يدلكه بورق السلق اذا برد ثم يعاد إلى النار ويجعل فيه قليل من العسل ويوقد عليه حتى يحترق العسل ثم يجلى

بعد ذلك بمدقوق الخزف ثم يغسل ويستعمل، حيث يصبح نقياً من الوسخ وأكسيد النحاس المسمى بالزنجار.

وأما الجزارون فإن على المحتسب أن يمنعهم من ذبح أي جمل مقرح الجسم إلى أن يبرأ جميع ما فيه من القروح، وقد كان لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله في سجل مجلد في ديوان الإنشاء، بأن لا يذبح من البقر المخلوع الورك والأعور والأعمى والمقلوع السن والمريش العنق، والمجنون والجرب، وكل مشقوق الحافر والمقطوع والمكوي، وكل شيء كانت عيوبه ظاهرة، وينهاهم أن ينفخوا شاة بعد السلخ فإن نكهة ابن آدم تغير اللحم وتزفره، كما يأمرهم ألا يلصقوا على سائر اللحوم شيئاً من القزدير فإن الحكماء قد ذكروا بأنه يسمه، وأن يضعوا ملحاً مسحوقاً على القرصية التي يقصب عليها اللحم اذا أراد الانصراف، لئلا يلحسها الكلاب أو يدب عليها شيء من هوام الأرض، والمصلحة ألا يشاركوا بعضهم بعضاً لئلا يتفقوا على سعر واحد.

وأما بائعو البقول فإن عليهم أن يبيعوها مغسولة، ومنقية من الحشيش وإذا بات عندهم شيء في دكاكينهم من الخضروات فلا يخلطوه من طري يومه.

وهذا غيض من فيض تلك القوانين والأنظمة التي كانت تعمل بها الأسواق في ظل الدولة الإسلامية، والتي يظهر من خلالها مدى حرص القائمين عليها على المحافظة على البيئة التي تؤول في النهاية إلى سعادة الرعية وصحة أبناء الأمة بدون استثناء، ومن أراد الاستزادة فإن كتب الحسبة كفيلة بأن تعطي صورة أوضح وأشمل من حيث الموضوعات التي عالجتها وبينت أنظمتها وقوانينها بكل دقة وتفصيل.

جـ - الأشجار والجوار

شجع الإسلام الزراعة وحثّ عليها بصورة لم يسبق لها مثيل في أي ديانة من الديانات أو فلسفة من الفلسفات، ولكن هذا لا يعني أن تلحق الضرر بالآخرين سواء كان ذلك بحجز الهواء أو التأثير على الجدران والآبار والبنيان ولذلك نرى الفقهاء المسلمين يخصصون باباً مستقلاً لمعالجة مثل هذه الموضوعات التي قد لا يعيرها البعض اهتماماً يذكر، فذكر ابن قدامة المقدسي أنه إذا حصلت أغصان شجرته في ملك غيره، أو هواء جدار له فيه شركة، أو على نفس الجدار، لزم مالك الشجرة إزالة تلك الأغصان، إما بردها إلى ناحية أخرى وإما بالقطع، لأن الهواء ملك لصاحب القرار، فوجب إزالة ما يشغله من ملك غيره كالقرار. وعلى كلا الوجهين إذا امتنع عن إزالته كان لصاحب الهواء إزالته بأحد الأمرين، لأنه بمنزلة البهيمة التي تدخل داره له إخراجها، وكذلك الحكم في كل ما امتد من عروق شجرة الإنسان إلى أرض جاره سواء أثرت ضرراً مثل تأثيرها في المصانع وطي الآبار وأساس الحيطان، و منعها من نبات شجر لصاحب الأرض أو زرع، اولم يؤثر فإن الحكم في قطعه والصلح عليه كالحكم في الفروع، وكذلك الحكم فيمن مال حائطه إلى هواء ملك غيره أو زلق من أخشابه إلى ملك غيره فالحكم فيه على ما ذكرناه[48].

وقال الباجي من المالكية: وتنازع شيوخنا رحمهم الله في الحمام والفرن إذا أحدث بقرب دار رجل وليس يضر ذلك بداره، غير أنه ينقص من ثمنها، فقال بعضهم: ذلك ضرر يجب قطعه من أجل ما يتقي من وقوع النار

ومن اجتماع الناس إلى ذلك لكثرة ترددهم وبه أقول لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ فكل من ذهب إلى أن يبخس شيئاً من ثمن دار جاره أو غيره بفعل يفعله منع من ذلك، وقال ابن حبيب: ويمنع الدباغ الذي يؤذي جيرانه بنتن دباغه لأنه ضرر، وكذلك دخان الأفران والحمامات، وسواء كان ذلك حادثاً أو قديماً، ولا يستحق ذلك بحيازة ثمانية أعوام ولا عشرة فأكثر، ومن كتاب ابن حبيب فيمن أضرت بجداره شجرة لجاره، فإن كانت الشجرة أقدم من الجدار وكانت على ما كانت عليه فلا كلام لصاحب الدار، وإن انتشرت وزادت في أغصانها قطع منها ما يضر بالجدار[49]. ومثل ذلك من اقتنى كلباً عقوراً فأطلقه فعقر إنساناً أو دابة ليلاً أو نهاراً أو خرق ثوب انسان فعلى صاحبه ضمان ما أتلفه، لأنه مفرط باقتنائه، إلا أن يدخل انسان داره بغير إذنه فلا ضمان عليه، وإن اقتنى سنّوراً يأكل أفراخ الناس ضمن ما أتلفه، كما يضمن ما أتلفه الكلب العقور[50].

ثالثاً - جلب المصالح ودرء المفاسد

والذي هو بالتالي مصلحة، بمعنى أن الشريعة تحرص في جميع حالاتها على تحقيق الخير للفرد والجماعة، وذلك لكون المصلحة مأخوذة من الصلاح الذي هو سلوك طريق الهدى وقيل هو استقامة الحال على ما يدعو اليه العقل والشرع والصالح القائم بما عليه من حقوق العباد وحقوق الله تعالى[51].

وقال الزمخشري في أساس البلاغة: وأمر الله ونهى لاستصلاح العباد، وصلح فلان بعد الفساد، ورأى الإمام المصلحة في ذلك، ونظر في مصالح المسلمين، وهو من أهل المفاسد لا المصالح وفلان من الصلحاء ومن أهل الصلاح[52]. وكما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فإن المصلحة كاسمها شيء فيه صلاح قوي ولذلك اشتق لها صيغة المفعلة الدالة على اسم المكان الذي يكثر فيه ما منه اشتقاقه وهو هنا مكان مجازي، وعليه فقد عرفها بأنها وصف للفعل يحصل به الصلاح أي النفع منه دائماً أو غالباً للجمهور أو للاحاد[53].

أما الدكتور البوطي فقد كان في تعريفه للمصلحة أكثر شمولية واستيعاباً وتفصيلاً لما يقع تحت لفظ المصلحة أو تشمله من خلال الممارسات العملية في الحياة الدنيا فقال: هي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها، والمنفعة هي الفائدة أو ما كان وسيلة إليها، ودفع الألم أو ما كان وسيلة إليه، وبتعبير آخر هي كما قال الرازي اللذة تحصيلاً

أو إبقاء، فالمراد بالتحصيل جلب اللذة مباشرة، والمراد بالابقاء الحفاظ عليها بدفع المضرة وأسبابها(54).

ولا شك في أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد، فإن كانت خيراً فهي مصلحة، وإن كانت شراً فهي مفسدة ولذلك نجد العز بن عبدالسلام قد ذكر أربعة أنواع للمصالح وأربعة مثلها للمفاسد، حيث اعتبر الأسباب في كل من اللذات والأفراح، والآلام والغموم نوعاً مستقلاً من المصالح، ثم قسمها جيمعاً إلى دنيوية وأخروية.

واتفقت كلمة العلماء على أن المصالح الحقيقية هي التي تؤدي إلى إقامة الحياة لا إلى هدمها والى ربح الحياة الأخرى والفوز فيها، وفي هذا يقول الشاطبي: والمصالح المجتلبة والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية فالشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من أهوائهم حتى يكونوا عباد الله، وهو المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس وطلب منافعها المعالجة كيف كانت(55).

ولا يمكن تحصيل هذا الأمر إلا إذا صلح حال الإنسان ودفع فساده، فإنه لما كان هو المهيمن على هذا العالم كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله، ولذلك نرى الإسلام عالج صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعه وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة باصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكير الإنساني الذي يسوقه إلى التفكير الحق في أحوال هذا العالم، ثم عالج الإنسان بتزكية نفسه وتصفية باطنه لأن الباطن

محرك الإنسان إلى الأعمال الصالحة كما ورد في الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»› وقد قال الحكماء: الإنسان عقل تخدمه الأعضاء، ثم عالج بعد ذلك إصلاح العمل بتقنين التشريعات كلها، فاستعداد الإنسان للكمال وسعيه اليه يحصل بالتدريج في مدارج تزكية النفس(56)، هذا مع العلم بأن المصالح الخالصة عزيزة وغير موجودة، فإن المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمراكب والمساكن لا تحصل الا بنصب مقترن بها أو سابق أو لاحق، ومن استقرأ أحكام الشريعة وتفاصيلها ونصوصها في مختلف المجالات أدرك الكثير من عللها وحكمها ومقاصدها، وتبين له في النهاية الآثار والنتائج المتمثلة في المصالح التي تجلبها والمفاسد التي تدفعها، وليس هذا الأمر مقصوراً على الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية، وإنما هو عام في مجمل الأحكام التشريعية، والتي تخاطب عقله وعمله، وتطلب صلاح ما بين يديه من مقومات حياته الدنيوية التي هي طريق إلى الآخرة، وفي هذا المجال يطيب لي أن أسوق للقارىء الكريم بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة موضحاً من خلال ما اشتملت عليه من معاني النظرة العامة للمصلحة أو دفع المفسدة، وهو المقصد الأسمى الذي وضعت من أجله الأحكام والتشريعات الإسلامية:

أ ـ القرآن الكريم:

1- قال تعالى: وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد﴾، البقرة، آية رقم 205، والمعني في الآية إنما هو الأخفش الذي قام بإحراق الزرع وقتل الحمر ولكنها كما يقول القرطبي صارت عامة لجميع الناس فمن عمل مثل عمله استوجب تلك اللعنة والعقوبة وبذلك يكون المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل وقيل المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار الزرع والمنسلون(57).

2- قال تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً، أن رحمة الله قريب من المحسنين﴾، الأعراف، آية رقم 56. الآية عامة تتضمن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر، فهو على العموم وعلى الصحيح من الأقوال، وتخصيص شيء دون شيء تحكم إلا أن يقال على جهة المثال، وذكروا من الإفساد في الأرض قطع الشجر المثمر ضراراً، وجعل الماء يغور، وقطع الدينار والدرهم، وتجارة الحكام وما شابه ذلك، وقد قال بعض الناس المراد ولا تشركوا في الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمد صلى الله عليه وسلم وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر(58).

3- قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾، النحل، آية رقم90. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أجمل آية في كتاب الله في

سورة النحل وتلا هـذه الآيـة، وروي عـن عثمان بـن مظعون رضي الله عنه أنه قـال: لما نزلت هذه الآية قـرأتها على علي بن أبي طالب فتـعـجب وقـال: يا آل غـالب: اتبـعـوه تفلحـوا، فوالله إن الله أرسله ليأمـر بمكارم الأخلاق، وقـال ابن عباس رضي الله عنه: هذه أجمع آية في القرآن الخير يمتثل والشر يجتنب.

وذكر العلمـاء في معنى العدل والإحسان تأويلات كثيـرة، فقال ابن عطية: العدل، هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب اليه، وقال سفيان بن عينيه العدل ها هنا استقراء السريرة، والإحسان ان تكون السـريرة أفـضل من العـلانية، والله تعـالى يحب من خلقـه إحسـان بعضـهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سجنك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك، وهو تعالى غني عن إحسانهم.

أمـا الفحشاء فـهي الفحش وهو كـل قبيح من قول أو فعل، والمنكر أعم منه لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل والأذيات على اختلاف أنواعها، والبغي هو انشاء ظلم الإنسان والسعاية فيه وهو داخل تحت المنكر لكنه تعالى خصه بالذكر اهتمـاماً بـه لشدة ضرره بالناس، وقد قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ذنب أسرع عقـوبة من بغي» وقـال الباغي مصروع، وقد وعـد الله تعالى من بغى عليه بالنصر، وفي الكتب المنزلة، لو بغى جبل على جبل لجعل الله البـاغي منهمـا دكـاً، وقـد تضـمنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبينت وجوب الاقتران في العمل بين العدل والإحسان، وفي الترك

بين الفحشاء والمنكر والبغي، روى ابن عطية خلال تفسيرة لهذه الآية أن جماعة رفعت على عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجها العامل وغلبها بأنهم لم يبينوا عليه كبيرة ظلم، ولا جوْروه له في شيء فقام فتى من القوم فقال يا أمير المؤمنين: إن الله أمر بالعدل والإحسان وأنه عدل ولم يحسن، قال: فعجب أبو جعفر من إجابته وعزل العامل(59).

وذكر عن الشيخ ابن عاشور أنه عند تفسيره لهذه الآية نقل عن السيرة الحلبية أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ألف كتاباً سماه الشجرة بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر أبواب الفتن، وهذا يعني أن الكتاب في الفقه والتشريع بل في أسس الفقه وفلسفة التشريع، والآية التي بنى عليها كتابه هذا جامعة لمقاصد الشريعة الإسلامية لأنها أمرت بجوامع المصالح ونهت عن جوامع المفاسد(60).

والمستقرىء لنصوص القرآن الكريم يجد أن المصلحة وما اشتق منها قد ذكرت ما يقارب من مائة وثمانين مرة، بينما المفسدة وما اشتق منها ذكرت ستين مرة، والذي يجب التنبيه إليه في هذا المجال أن الأوامر مقصودة لذاتها وأما النواهي فليست كذلك وإنما كان ورودها تبعاً للأوامر فهي كالسياج والحماية التي تذوذ عن حياض الشريعة فتبعد عنها كل ما يسلبها الخيرية أو يؤدي إلى هدم أركانها وجوانبها المختلفة، ومن هنا وعد الله عزّ وجلّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات ذكوراً وإناثا، أن يحييهم حياة طيبة، وأن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وفي المقابل توعد الظالمين البغاة

بالعذاب الأليم والحياة الضنكا كما أنه جعل القصاص وإقامته في المجتمع المسلم حياة، ألا ترى أن هذا يخالف النظر العقلي لأول وهلة، ولكنه سرعان ما ينضبط اذا أدرك المصلحة المترتبة على إقامة هذا الحد وسواه من الحدود التي شرعت لها عقوبات مقدرة لا تختلف زماناً أو مكاناً، وهذا ما يجعلنا نؤكد وبكل ثقة وقوة أن أوامر القرآن ونواهيه ما هي إلا دعوة إلى المصالح واكتسابها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، حيث أن غاية ما طلب من المكلفين في هذه الأوامر أن يكونوا تحت لواء قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾، ولا شك أن هذا الإطار يشمل المقاصد الضرورية ومكملاتها كحفظ النفس والدين والمال والعقل والنسل والمقاصد الحاجية ومكملاتها، والمقاصد التحسينية ومكملاتها وهذا بحد ذاته يوضح ما تضمنته آيات قرآنية من ضرورة حفظ الدماء والأموال والفروج والدين والعقول وما دعت إليه من العبادات المالية والبدنية وما أشارت إليه من الأخلاق الفاضلة كالوفاء بالعهود وصلة الأرحام، وحقوق الجار والمسلمين على بعضهم البعض والايثار، والعفو وكظم الغيظ والابتعاد عن الغيبة والنميمة والهمز واللمز، والتجسس والاستهزاء بالآخرين، وغيرها من الأوامر والنواهي، واذا ما أضيف إلى هذه المعاني ما ثبت بالاستقراء القرآني من كون مقصد الشارع في كل ذلك هو التيسير وليس التعسير ورفع المشقة والحرج، فإننا ندرك وبصورة لا تقبل الشك كم هي رغبة الشارع في إسعاد البشرية وتوفير البيئة الصالحة لها سواء كان ذلك في عاداتها أو معاملاتها أو سلوكياتها المختلفة وهو ما تكفلت ببيانه كتب المقاصد وجهود الجهابذة من العلماء.

ب- السنّة النبوية الشريفة:

أولاً: قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو حجة عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(61).

هذا خطاب من الرسول عليه الصلاة والسلام للأمة الإسلامية، في كل مكان وزمان، يوضح فيه معالم هذه الشريعة السمحة، وأسس هذا الدين الكريم، الذي يجعل من النظافة في جميع مناحيها وأماكنها وأنواعها جزءاً لا يتجزأ من شريعته وأوامره، والتي ما جاءت إلا لتحقق مصلحة وتدرأ مفسدة، ومن هنا لم تكن النظافة في نظر الشارع طقوساً تعبدية يمارسها رجال الدين، بل كانت واحداً من الأوامر الشرعية التي لا يجوز لمسلم أن يتركها ما دام يؤمن بالله ورسوله فالله عزّ وجلّ يخاطب رسوله الكريم في آية قرآنية باقية بقاء الكون ويقول له: ﴿وثيابك فطهر﴾(62)، ويقول أيضاً في بيان محبته للنظافة وأهلها: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾(63). بينما يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الوضوء من خصائص المؤمن دون غيره من الناس فيقول: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(64)، كما جعل الوضوء مع الشهادتين من موجبات فتح أبواب الجنة الثمانية للمسلم ليدخل من أيها شاء، وذلك كما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو يسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمد رسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»(65).

ولا اعتقد أن أمة من الأمم راعت مطالب النظافة مثلما راعته الأمة الإسلامية، فقد طالبتهم بذلك في أجسادهم وأماكن عبادتهم وطرقاتهم ومنازلهم وملابسهم ومأكلهم ومشربهم وحتى في هيأة شعورهم وأحذيتهم، واحتل جميع هذا مكانة عالية من دين الإسلام، حيث أن كثيراً منها معدود من خصال الإيمان، ومن الصدقات، ألا ترى أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة وأن اذاية المسلمين في طرقاتهم لعنة ومسبة، وقد قال رجل للرسول عليه الصلاة والسلام أني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً فهل هذا من الكبر؟ قال: لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس[66]، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى شيئاً من الأوساخ عرف أثر الكراهة في وجهه فقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وعليه ثياب وسخة فأعرض عنه كالكاره له وقال: هلا يجد هذا من يغسل له ثوبه[67]، ولعل حديث سيدنا عمر بن الخطاب الذي وصف فيه جبريل عليه السلام حين نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام على هيئة رجل من أجل أن يعلم المسلمين أمور دينهم خير دليل وشاهد على ما تقول فقد قال في وصفه أنه رجل شديد بياض الثياب أي أنه ثيابته غير متسخة وفي أعلى درجات النظافة التي يمكن أن يتصورها البشر العادي، ويكفينا أن الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام كان يحب الجميل والنظيف من الثياب وأنه جعل من الأشياء المحببة إليه في الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عينه في الصلاة، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[68]، أي عند كل صلاة، مما يؤكد أن في هذا مصلحة تعود علينا

بالنفع في ديننا وأبداننا، وهذا أمر ملموس في الظاهر والباطن ألا ترى أن كل واحد فينا يجد السرور والراحة النفسية في داخله إذا ما لبس ثوباً جديداً أو نظيفاً مكوياً، ومثل ذلك اذا دخل إلى بيت نظيف زينت جوانبه بالورود، وعطرت زواياه وأروقته بالبخور ورتبت فيه الأغراض بصورة تميل إليها النفس وترتاح لها القلوب وبالنظافة نستطيع أن نجمع بين سلامة الظاهر والباطن وهو ما تضمنته الآيات القرآنية وأشارت إليه في قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾[69]، ولذلك كان الوضوء وضاءة وصباحة لما فيه من النظافة التي تبين جمال الوجه إضافة إلى كونه تتساقط بسببه الخطايا مع تساقط قطرات الماء، وهذا هو شأن سائر خصال الإيمان والأقوال حيث كلها تطهر القلب وتزكيه، وأما الطهارة بالماء فهي تختص بتطهير الجسد وتنظيفه حتى أن أبا الدرداء فسّر أداء الأمانة بالغسل من الجنابة لأن الله لم يأتمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها[70].

وقد امتدت مطالب النظافة في الإسلام إلى الأفواه والأجواف بحيث لا يدخلها إلا الحلال ولا يخالطها إلا النظيف الذي يقوي الأجساد في العاجل والأجل وبخاصة أنها طرق القرآن فقد ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام نظفوا أفواهكم فإنها طرق القرآن[71]، وقد تتبعت بعض الأحاديث الواردة بشأن النظافة فوقفت على بعض منها أذكره للاستزادة ولبيان أهمية النظافة في حياة المسلم الدنيوية والأخروية وهي:

1- إن الله نظيف يحب النظافة.

2- إن الله يحب الناسك النظيف.

3- الإسلام نظيف فتنظفوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف.

4- تنظفوا بكل ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف[72].

ثانياً: قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[73].

إن هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى لتترجم لكل خصلة من خصال العلاقات الفردية والجماعية ويعتبر من الدعائم البيئية التي وضعها الإسلام من أجل المحافظة على الكرامة الإنسانية بصورة لا تقبل الانحطاط والانغماس في أرجاس الشيطان سواء كان ذلك عن طريق اللسان أو عن طريق الفرج وهما سلاحان بحدين مختلفين، فما الغيبة والنميمة والهمز واللمز والسخرية والاستهزاء والكفر والفسق وقول الزور والكلمة الخبيثة إلا واحد من هذين الحدين، بينما تمثل الشهادتان والدعوة إلى الله وقول الحق والنصيحة والكلمة الطيبة الحد الآخر.

وقد عبر باللسان في هذا الحديث عن كل ما يتأتى منه من قول ونطق وأكل وشرب وسائر ما يتأذى بالفم من الأفعال. وعبر بالفرج عن شهوة البطن والفرج وأنهما لا بد وأن يكونا ضمن قاعدة الحلال والحرام بحيث لا يسمح للسان والفرج بأن يطلق لهما العنان لما يترتب على ذلك من المفاسد الاجتماعية التي اذا استشرت في أي مجتمع من المجتمعات أقضت مضجعه وأحيت فيه رغبة البحث عن الدواء. فيعمل العقلاء ولكن دون جدوى أو فائدة، وهذا يبين أهمية المعالجة الوقائية والطب الوقائي الذي أصبح اليوم تخصصاً تحرص

جميع الدول على نشره والالتزام به، والحكمة القديمة تقول: درهم وقاية خير من قنطار علاج، خاصة وأن غالب الأدوية الحديثة تحتوي على مواد كيماوية تؤثر سلباً على الأجسام. ودلالة الحديث واضحة في أن سلامة المجتمع إنما تكون من سلامة الأفراد، وهذا ما جعل الحديث يخاطب الفرد ولا يخاطب الجماعة، ويؤكد على ضرورة أن يكون المسلم بعيداً عن جميع مظاهر الانحراف القولي والفعلي، ولذلك يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام العقلاء فيقول في الحديث المتفق عليه: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، ويقول في بيان طبيعة السلوك الإيماني: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء»، رواه الترمذي، ولما كانت طبيعة النفس البشرية أمارة بالسوء، فإنه لا بد من وضع الضوابط التي من شأنها كبح جماحها، خشية أن تنساق وراء الشهوات وحب العظمة، فتصل إلى الظلم وتخرج عن المألوف والمعروف، وقد جاءت سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وعاء يفوح عنبراً ومسكاً، ويأخذ بيد كل ضال إلى طريق الهداية، بعيداً عن أهواء النفس ورغباتها، «ولا يجرِمنكم شنأن قوم على أن لا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى»(74). ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾(75).

ولذلك كان من أشر الناس عند الله ذو اللسانين وذو الوجهين الذي يتخذ من النفاق والباطل والكذب طريقاً إلى الفساد والإفساد بين الناس، وقد قال الله عزّ وجلّ في صفات المنافقين: ﴿وإذا لقوا الذين أمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾(79).

وذو الوجهين الذي يميل حيث مالت الريح لا يمكن أن يكون عند الله وجيهاً ولا يمكن أن يدوم له المكر والخداع والنفاق، وأنه لا بد مكشوف ستره، ومفضوح أمره، في الدنيا قبل الآخرة حيث تشهد عليه جوارحه وتنطق بالحق الذي كان عليه، والفساد الذي كان يمتطيه في وقت لا يجد فيه شفيعاً ولا نصيراً ولا محامياً يدافع عنه في المحكمة الالهية الكبرى، وذلك بغض النظر عن نوع الكبيرة التي اقترفها وكانت سبباً في اختلال الموازين في المجتمع بظلم أو رشوة أو نميمة أو سعاية في الشر أو في الكبر والعجب والتطاول على الضعفاء الذين لا يجدون لهم في الدنيا ولياً يذود عن حماهم ويرعاهم من شر اولئك البغاة والظالمين.

لقد وقفت الإنسانية اليوم على مفترق طرق خطر، استعملت فيه اللسان بجميع الوسائل الشيطانية المتاحة لها، فجعلت من الكلمة سحراً عن طريق الاذاعة أو التلفاز أو المجلة أو الجريدة أو القصة أو الرواية أو الندوة أو المهرجانات الخطابية والغنائية والشعرية، وسمحت باسم الديمقراطية لكل ناعق بأن يرفع صوته وأن يغني اللحن الذي يريد حتى وإن كان في ذلك فرقة بين الأمم، وتعد على حرية الآخرين الفكرية أو الدينية أو السلوكية، وذلك من منطق القوة المادية والقدرة على القهر، فكان العالم حلبة صراع إذا ما انتهت الحرب في جهة اندلعت النيران من جديد في مكان آخر، وليس ذلك مجال صدفة وإنما هو مخطط رهيب تنفذه قدرات عالية ومتخصصة، في وقت يغيب فيه الخلق السامي، والشعور بالأخوة التي نادى بها الإسلام، وتنمو فيه العصبية الجاهلية والتقوقع حول الأقليميات والأجناس مما جعل الصراع أمراً

لا بد منه، شأنهم في ذلك شأن الحيوانات في الغابة، القوي فيها يأكل الضعيف، وذلك هو ميزان الحق في نظرهم جميعاً دون استثناء إلا من رحم ربك وقليل ما هم، تلك حجتهم وتلك أمانيهم، فهل إلى ذلك من سبيل؟ إننا لو حاولنا أن نتعرف على عدد الصحف اليومية التي تصدر في كل صباح لوجدناها بالملايين، ولما وجدنا فيها أي نوع من أنواع التوافق في المبادىء، ولرأينا كم هي الهوة التي تفصل بين أبناء الأجناس في هذا العالم، ومع هذا الكم الهائل من دعائم الباطل إلا أننا نرى بين الحين والآخر أو نسمع كلمة حق من بين هذا الضباب الكثيف الذي تراكم بعضه على بعض فأوجد غيمة سوداء ولكنه لا يكاد يخترقها الشعاع الضعيف، ولا تنقشع سحابتها بسرعة ودون عناء، ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نناشد الأخوة الصحفيين الذين سخّروا أقلامهم للكتابة في الجرائد والصحف والمجلات من أجل أن يتقوا الله عزّ وجلّ في كل كلمة أو خبر ينقلوه أو ينشروه، وأن ينزهوا أقلامهم عن الكذب والافتراءات والدعايات المغرضة وإثارة الفتن، وأن يجعلوا من أقلامهم ومدادها غذاء حياً للأخوة الصادقة والإنسانية التي تتعالى عن كل رخيص ونجس، ولا شك أنهم يحملون أمانة ثقيلة لا بد لهم من رعاية حقوقها، دون بهرجة أو زخرفة أو نفاق، فليسخروا أقلامهم لخدمة الأمة ورعاية مصالحها والدفاع عن حقوقها ورفع الضيم والمعاناة عن أبنائها، وليكن رائدهم في ذلك كله قول الله عزّ وجلّ: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال أنني من المسلمين﴾.

وأما الفرج والمحافظة عليه فهو مما اتفقت عليه الشرائع السماوية

والوضعية على حد سواء وذلك لما يتحقق من عدم العفة والدخول في الزنا أو اللواط من مضار جسدية وأخلاقية واجتماعية وصحية لا يمكن معالجتها إلا من خلال الامتناع عن هذه المفاسد ونظراً لخطورة النتائج التي يوصل إليها عدم كبح جماح الشهوة، فإن الله عزّ وجلّ لم ينهنا عن الزنا فحسب وإنما نهانا عن قربانه وإتيان مقدماته التي غالباً ما توصل إليه كالنظر والخلوة والاختلاط والسفور والتبرج وما إلى ذلك من دواعيه التي نشاهدها اليوم بصورة لا يمكن إنكارها أو جحود نتائجها السلبية على المجتمعات الإنسانية في كل مكان وزمان.

ويكفي هذه الفاحشة قبحاً أنها تضيع الأنسال والأنساب وتوقع العداوة والبغضاء، وتوجب الفقر والفاقة، وتورث الأمراض الخبيثة التي يعجز العلم الحديث عن دوائها كالزهري والسيلان والقرحة والايدز وغيرها مما يمكن أن يكتشفه العلماء أو يظهر مع استمرار الانغماس في أوحال الزنا واللواط.

وقد أصبحت هذه الفاحشة الكبيرة أحد مظاهر الحضارة في العصر الحديث، حيث انتشرت دور البغاة والنوادي الليلية، والحفلات المختلطة التي تقيمها النساء ذوات الأجساد العارية إضافة إلى نوادي السكرتيرات والعراة والأفلام الجنسية الفاضحة التي تقوم ببثها محطات أوروبية وغير أوروبية عبر الأقمار الصناعية ومحطات الالتقاط الحديثة، لإفساد الشباب من الذكور والإناث وإبعادهم عن كل بيئة صالحة يمكن أن تنشىء جيلاً يسعى إلى الخير والنصر بعد كل المعاناة التي لاقاها آباؤه وأجداده وما زال يلاقيها إلى الآن في حرب لا هوادة فيها ولا تعرف المهادنة أو المصالحة.

والمستقرىء لأحاديث السنة النبوية في هذا الجانب يجد فيها موسوعة لا ينضب معينها ولا يمكن أن يجد ما فيها من الأخلاق الفاضلة والبيئة الصالحة في أي قاموس من قواميس الأنظمة العصرية الوضعية، وذلك لكونها ربانية تترجم الأحاسيس الحقيقية التي تخامر النفس البشرية وتتألق مع ما يسمو بها إلى مدارج الكمال في صورة غير معيبة ولا مشوبة بشبهة، وذلك هو ما يصدق عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾.

وتعتبر الأخلاق من أدق المقاييس على انحطاط الأمم وارتقائها، حتى أن بعض علماء الاجتماع قال: إنما تفاضل الأمم في حالة البداوة بالقوة البدنية، فإذا ارتقت تفاضلت بالعلم ثم إذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالأخلاق(77). وصدق شوقي حين قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت — فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويتين لنا من هذه المعاني مجتمعة أن نسبة الخلق الحسن إلى الدين كنسبة الوعاء إلى ما استقر فيه، والدين بلا خلاف هو البيئة الصالحة التي تحقق سعادة الدارين وتنفي عن المسلم خبث الدنيا وتجنبه عذاب الآخرة، ولا يمكن لأي فلسفة أو مذهب وضعي أن يحقق مثل هذه الأهداف لما يمكن أن يلحق به من مصالح خاصة ورغبات ونزوات تلوث البيئة بصورة لا تقبل الشك.

ومن أكثر ما يدلل على العلاقة الحميمة التي تربط الأخلاق بالإيمان ما ورد عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع سفانة بنت حاتم الطائي حين

أسـرتهـا خيـول الرسـول صلى الله عـليه وسلم في سـرية بقـيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأتوه بهـا فـقـالـت: هلك الوالد وغـاب الرافـد، فـإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كـان سيد قـومـه، يفك العـاني، ويقـتل الجـاني، ويحـفظ الجار، ويحمي الذمـار، ويفـرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفـشي السلام، ويحـمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها صلى الله عليه وسلم يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق(78).

والناظر إلى ما ذكرته سفانة من الصفات يلاحظ أنها من دعائم وأسس البيئة الصالحة التي يكون فيها المجتمع وكأنه بنيان مرصوص إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهذا يجعلنا ندرك الغاية العظيمة التي من أجلها بعث الرسول عليه الصلاة والسلام والتي حصرها في إتمام مكارم الأخلاق حين قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ولذلك فإنه في غيبة المنهاج الأخلاقي يمكن لنا أن نتصور كل شيء، وأن نتوقع كل شيء وأن لا نستغرب شيء، بل من الطبيعي أن نشاهد في الساحة العربية والإسلامية اليوم توسعاً كبيراً في إنشاء الملاهي والمسارح ودور السينما، كما نشاهد إسرافاً كبيراً في إنشاء معاهد الرقص والموسيقى والتمثيل للصغار والكبار وقد طفت على سطح المجتمع نماذج من الفنانين والفنانات، صاروا محور الأخبار الصحفية، فجندت وسائل الإعلام لتضخيم وجودهم وتتبع أخبار زواجهم وطلاقهم وسكرهم وعربدتهم، وهم الذين قادوا الشباب إلى

التقليد الأعمى، وإلى التحلل في السلوك فكانت جماعات الخنافس في المدارس والمصانع من الظواهر الناشئة عن الفراغ الأخلاقي ومن الثمرات التي أهدتها الفنون المبتذلة إلى الحياة الإسلامية في الوطن العربي وترتب عليها كثير من المشكلات الحيوية والتي من أهمها انعدام فاعلية الفرد في مجالات كثيرة، مما يحتم علينا ضرورة إحداث ثورة أخلاقية تستهدف بناء الإنسان الأمل، الإنسان المستقبل، الإنسان الثورة، بكل ما يحمل من مطامح قريبة وبعيدة، وبذلك تكتمل للوطن عدته لارتياد آفاقه الحضارية المنشودة، خاصة وأن معركتنا مع الصهيونية وحلفائها طويلة الأمد، وأن أمضى أسلحة القتال هو أن نتسلح بالأخلاق التي تحرم الخيانة، والتهاون والتفريط والغفلة أمام العدو، وتفرض البذل والتضحية بالنفس والمال، وتؤكد على دوام اليقظة في مواجهة الخطر(79).

ورحم الله الفيلسوف المسلم محمد إقبال الذي يقول في إحدى خطبه الشهيرة في مدينة الله أباد سنة 1930م: «ليست غاية الإسلام منحصرة في الواردات الذاتية التي تجعل المرء بمعزل عما حوله من الأشياء ومن حوله من الناس، بل بناء للتربة التي تجعل الفرد صالحاً لأن يتكون منه ومن غيره مجتمع صالح له أنظمته القويمة، ومن مادة هذه التربة الفاضلة استمدت مقومات السياسة العليا عند المسلمين، وهي سياسة استنبطت فروعها العملية من أدلتها الإجمالية في محكم القرآن والسنة النبوية، ولو أننا جعلنا دستور الحياة ونظام العمل قائمين على أصول الإسلام ومبادئه في الهند وحدها لأشهدنا العالم أمة مثالية تؤثر في حياة جميع المسلمين وربما امتد أثرها كذلك إلى جميع أقطار المسكونة(80).

وقد يتساءل البعض عن ماهية الأخلاق التي نطالب بثورة من أجلها، أهي أخلاق الأقوياء أم أخلاق الضعفاء؟ أهي أخلاق الكرام أم أخلاق اللئام؟ أهي أخلاق الربح أم أخلاق الخسارة؟ إننا بحاجة إلى ضابط يتفق عليه الجميع في تعاملهم بهذا الخلق أو ذاك، وقديماً فسّر (هوبس) الفيلسوف الانجليزي كل خلق حميد بأنه قوة أو دليل على قوة، فالصبر قوة لأن الضعيف يجزع ولا يقوى على الصبر والاحتمال، والكرم قوة، لأن الكريم يثق من قدرته على البذل ويعطي من هو محتاج إلى عطائه وهو ضعيف، والشجاعة قوة لأنها ترفض الجبن والاستخذاء. والعدل قوة لأنه غلبة الإنسان العادل على نوازع طمعه ودوافع هواه والعفة قوة، لأنها تقاوم الشهوة والإغراء، وقس على ذلك كل خلق حميد، وجماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التي اتصف بها الخالق نفسه في أسمائه الحسنى وأن المسلم ليؤمن بمصدر هذه الأخلاق المثلى. ويوافق بأنها جميعاً مفروضة عليها بأمر من الله ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان أن يقولا معاً إنها صفات لا ترجع إلى مصدر غير المصدر الالهي الذي تصدر منه جميع الأشياء لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع ولا باستطاعة القوة ولا بالقانون والسلطان ولكنه تعلق بما في الإنسان من حب الجمال وشوق إلى الكمال، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامة في معارج الرفعة والارتقاء(81).

وبالنظر إلى هذه المبادىء والنظم التي يتفق عليها العقلاء من جنس البشر فإنه سرعان ما يتكشف لنا موقف الحضارة العصرية الصعب وذلك بسبب عدم ملاءمتها لنا. وقيامها على أساس من الخيالات والاكتشافات

العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم دون مراعاة فطرهم التي تحنو إلى العليا وأرواحهم التي بالأخلاق تحيا. وإن كل إصلاح في شأن من شؤون الأمم، لا يتناول تصحيح مقاييس الحياة فيها فهو عبث فارغ لا يستحق عناء، وأصدق ما تمتحن به مقاييس الحياة في الأمم أن تعرف الفضائل التي يَزِنون بها مقادير الرجال، ماذا يبتغون منهم وفي أي هيئة يحبون أن ينظروا اليهم ولذلك فإننا لا نقيس المدنية الغربية بعدد اختراعاتها، ولكن بالملكات التي انتجتها، فهل بين هذه الملكات ما هو أعظم وأجل وأرفع من الملكات التي أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها؟ إن كان ثمة فرق فهو يسير جداً بالنسبة إلى غطرسة المدنية الغربية ودعاواها، وأنا اعتقد اعتقاداً جازماً أن القمة الروحية التي ارتقى إليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم، وأن هذا التقصير عيب كمين فيهم، ويكفي أن أوروبا لم تنبت نبياً، وأنها عالة على الشرق في ما تدين به[82].

الهوامش

1- سورة الفرقان، آية رقم2.

2- التربية الإسلامية في ظلال القرآن، جمع عبدالله ياسين، عمان، دار الأرقم، ط1، ص265 وما بعدها بتصرف.

3- مجلة المسلم المعاصر، السنة الخامسة عشر، العدد 59، ص77-78 بتصرف.

4- سورة المدثر، آية رقم 38.

5- التربية الإسلامية في ظلال القرآن، جمع وإعداد عبدالله ياسين، بيروت، دار الأرقم، ط1، 1983، ص297.

6- سورة الأنعام، آية رقم 64.

7- الفوائد، ابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة، ص53.

8- مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن تيمية، مطابع إدارة المساحة العسكرية، القاهرة، 1404هـ، جـ1، ص23.

9- التوجيه التشريعي في الإسلام، مجمع البحوث الإسلامي، 1972، جـ3، ص174.

10- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1991، جـ1، ص525.

11- فيض الخاطر، أحمد أمين، مصر، مكتبة النهضة، جـ2، ص263-264 بتصرف.

12- سورة الاسراء، آية رقم 16.

13- المرجع السابق، جـ2، ص257.

14- انظر التمهيد، جـ20، ص158 وجامع العلوم والحكم، ص212.

15- سورة البقرة، آية رقم 233.

16- سورة النساء، آية رقم 12.

17- سورة البقرة، آية رقم 231.

18- سورة الشورى، آية رقم 41.

19- التمهيد، جـ20، ص160.

20- جامع العلوم والحكم، ص223 وما بعدها.

21- التمهيد، جـ20، ص160.

22- نفس المرجع، ص162.

23- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ابن بسام، ص130 وانظر في عقوبة الخراز والمرأة اذا لم ينتهيا، المعيار المعرب، جـ6، ص420.

24 المعيار المعرب، الونشريسي، وزارة الأوقاف المغربية، 1981، جـ2، ص499 بتصرف.

25- الطرق الحكمية، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، لبنان، ص280-281.

26- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مناهل العرفان، بيروت، جـ12، ص160.

27- مدخل إلى التصور الاسلامي للانسان والحياة، عابد توفيق الهاشمي، دار الفرقان، عمان، ط1، 1982، ص34، 39 بتصرف.

28- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ابن بسام تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968، ص17، 19 وانظر نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري، ص11-14 بتصرف.

29- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، الشيزري، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1981، ص113.

30- الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، ابن قيم الجوزية، ص278-279.

31- نهاية الرتبة، ابن بسام، ص20.

32- ترتيب المدارك، القاضي عياض، طبعة وزارة الاوقاف، المغرب، جـ4، ص60-31.

33- المرجع السابق، جـ5، ص7.

34- نهاية الرتبة، ابن بسام، ص19، وانظر نهاية الرتبة، الشيزري، ص14.

35- المغني، ابن قدامة، طبعة الرياض، جـ4، ص551-552.

36- نفس المرجع انظر الجزء الثامن طبعة مكتبة القاهرة، 1969، ص423-430 بتصرف.

37- فصول الأحكام، الباجي، وزارة الأوقاف المغربية، ص327، وانظر الكافي لابن عبدالبر، جـ2، ص940، والمدونة، 5غم531.

38- المعيار، الونشريسي، جـ8، ص414.

39- ترتيب المدارك، القاضي عياض، جـ5، ص104.

40- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار المعرفة، بيروت، جـ3، ص121-123 بتصرف.

41- فقه الملوك ومفتاح الرتاج، عبدالعيز بن محمد الرجني، تحقيق د. احمد الكبيسي، ص34.

42- الكامل في التاريخ، ابن الاثير، دار صادر، بيروت، 1965، جـ2، ص527. وانظر تاريخ الأمم والملوك، الطبري، جـ3، ص145.

43- أنية وأصالة، مولود قاسم، منشورات وزارة التعليم الأصلي، الجزائر، ص514 بتصرف.

44- مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد، مصر، ص372-373 بتصرف.

45- المرجع السابق، ص358.

46- نهاية الرتبة، ابن بسام، ص21-23 ونهاية الرتبة، الشيزري، ص22-23 بتصرف.

47- نهاية الرتبة، ابن بسام، ص61 ونهاية الرتبة، الشيزري، ص24 بتصرف.

48- المغني، ابن قدامة، جـ4، ص538، 541.

49- فصول الأحكام، الباجي، ص332-335.

50- المغني، ابن قدامة جـ8، ص338.

51- معجم المصطلحات الإسلامية، محمد التهانوي، شركة خياط، بيروت، جـ3، ص821.

52- أساس البلاغة، الزمخشري، القاهرة، مكتبة محمد أفندي، جـ2، ص14.

53- مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، الشركة التونسية للنشر، ص65.

54- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، محمد سعيد البوطي، المكتبة الأموية، دمشق، ط1، 1966، ص23.

55- نظرية المقاصد عند الشاطبي، احمد الريسوني، الرياض، الدار العالمية للكتاب، ط2، 1992، ص235.

56- مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، ص64-65.

57- تفسير المحرر الوجيز، جـ2، ص139، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ3، ص17.

58- المحرر الوجيز، ابن عطية، جـ7، ص79، وانظر الجامع لأحكام القرآن، جـ7، ص226.

59- المحرر الوجيز، جـ10، ص223-225، والجامع لأحكام القرآن، جـ10، ص165-168 بتصرف.

60- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، احمد الريسوني، ص50.

61- رواه مسلم، وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، جـ2، ص6.

62- المدثر، آية رقم4.

63- البقرة، آية رقم 222.

64- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، جـ2، ص12-13.

65- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، جـ2، ص12-13.

66- رواه مسلم والترمذي.

67- الحكم الجامعة، عبدالله بن زيد، ص268.

68- الأعراف، آية رقم 36.

69- الإسراء، آية رقم 82.

70- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، جـ2، ص13.

71- كنز العمال، علي الهندي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1993، جـ1، ص611.

72- المرجع السابق، جـ9، ص277-278.

73- انظر فيض القدير، جـ6، ص241.

74- سورة المائدة، آية رقم 8.

75- سورة الشمس، آية رقم 9.

76- سورة البقرة، آية رقم 16.

77- الأخلاق والواجبات، عبدالقادر المغربي، القاهرة، المطبعة السلفية، ط2، 1347هـ، ص28.

78- نفس المرجع، ص31-32.

79- دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، الكويت، دار البحوث العلمية، ط8، 1991، ص م. ب، بتصرف.

80- البناء الأخلاقي، محمد بشير الباني، دمشق، مطبعة العلم، 1965، ص22-23.

81- الفلسفة الذاتية، عباس محمود العقاد، بيروت، المكتبة العصرية، ص31-38 بتصرف.

82- آخر كلمات العقاد، عامر العقاد، القاهرة، دار المعارف، ص28، 62 بتصرف.

الخاتمة

1- إن من أهم ما يميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من الشرائع أنها جاءت بتصور كامل عن الحياة والإنسان والكون، وأرست لذلك سنناً كونية ثابتة لا تتغير، لأن قوى التحكم من حيث الوجود والعدم ليست بشرية، في حين أسندت كثيراً من الظواهر الكونية المتعلقة بالإنسان إلى الإنسان نفسه، ولا أتصور بأي شكل من الأشكال أن هناك أي نوع من أنواع التضارب بين العلم الديني الذي أرسى القواعد الكلية وأظهر السنن الالهية في هذا الكون وبين العلم المدني الذي حاول وما زال يحاول استكشاف مجاهيل هذا العالم واستقراء الظواهر وما يمكن أن يترتب على وجودها أو عدمها من تأثيرات جانبية يمكن أن تخدم الإنسانية بالسعادة والرفاهية أو توجد لها الشقاء والعناء.

وإذا كانت علوم الدين محدودة الجوانب تتكرر مع مرور الأيام والليالي ليكتسب منها المسلم أدب النفس والتقوى وسكينة الروح، وروح الجماعة والتعلم على التفاني والتعاون على البر والتقوى، فإن العلم المدني المادي الدنيوي متجدد مع تجدد التجارب والاختراع وقد أظهرت الإنسانية في قرونها الأخيرة مزيداً من المعارف في مختلف ميادين العلوم يعادل أضعاف ما توصلت إليه في القرون السابقة، وهذا بحد ذاته قد حمل في ثناياه كثيراً من الايجابيات والسلبيات على حد سواء، وإن كنت لا أتصور أن رغبة الإنسان الجامحة إلى السيطرة يمكن لها في وقت من الأوقات أن تسخر

هذه العلوم لرفعة الإنسان وكرامته بقدر ما تستخدمها وسيلة للسطوة والجبروت وفرض الهيمنة، الامر الذي يجعل المرء في شك من سلامة النوايا، وعدم اطمئنان للمستقبل الذي تتلاعب به التكنولوجيا الحديثة غير آبهة بما يمكن أن تحدثه من اختلالات في البنى البيئية، من خلال ما تفرزه من الأدخنة والمواد السامة التي تقتل الإنسان والحيوان والنبات، رغم ما أوجدته السنن الالهية من وضع طبيعي يخدم الكائنات الحية فوق هذا الكوكب، سواء كان ذلك متعلقاً بالماء أو الهواء أو غيرهما من العناصر البيئية التي ذكرناها من قبل فطبقة الهواء مثلاً بلغت من السماكة بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج اليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفتيامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور، ومعظمها سام، فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع ودون تغير في نسبته المتوازية اللازمة لوجود الإنسان، وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات وأخيراً الإنسان نفسه[1].

أضف إلى ذلك أن العلاقة العجيبة بين الكائنات الحية في هذا الكوكب تلعب دوراً مهماً في قيام الحياة واستمرارها نظراً لما يحدث من تفاعلات كيماوية تؤدي في النهاية إلى إيجاد التوازن المطلوب لبقاء الإنسان والحيوان والنبات ومن هنا فإننا نجد جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب، وكل ما يتعلق بحياة الزرع تبني تكوينها من الكربون والماء على

الأخص، في حين نجد الحيوانات تلفظ ثاني أكسيد الكربون، بيما تلفظ النباتات الأكسجين. ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفذ في النهاية كل الأكسجين أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً، ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان، فيلحق به الآخر وشيكاً[2].

2- إن وجود مثل هذه الظواهر العلمية التي تفرض وجودها منذ بدء الخلق وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لحفي بنا أن ندرك بأن الكون لا يمكن أن يعجز في يوم من الأيام عن تلبية حاجات الإنسانية مهما كانت صفتها أو اتسعت رقعتها أو ازداد عدد أفرادها حيث أنه يكاد يكون من المتفق عليه أنه لا البيئة وحدها ولا المادة وحدها ولا أي اتفاق أو اتحاد كيماوي آخر بين عناصر الطبيعة يمكن له أن يأتي مصادفة أو أن يوجد الحياة الإنسانية على شكلها الطبيعي الذي يقرره العلماء ويعترف به المؤمن والكافر، وذلك بغض النظر عن الصورة التي يرسمها كل منهم لطريقة التطور أو الزمن الذي استغرقه حتى وصلت الأمور فيه إلى ما نحن عليه اليوم.

ولكننا يجب أن ندرك بما لا مجال للشك فيه أنه لا يمكن للانسانية أن تحفظ نفسها وغيرها أو تكون في رغد من العيش إلا إذا سمت بأخلاقها نحو العلا.

لأن الاخلاد إلى الأرض ليس إلا صورة منحطة لما يمكن أن يصل إليه الإنسان اذا عطل جميع نوازعه الأخلاقية والإيمانية، وبمقدار ما يستطيع الإنسان أن يوائم بين تقدمه العلمي وبين أخلاقه وسلوكياته بمقدار ما تهيء له

الحياة سعادة ورفاهية يشعر من خلالها بالآثار الايجابية لكل من السنن الكونية التي لا يمكن أن تقدم خدماتها إلا من خلال الأدب والنبل والتعالي عن الرذائل والالحاد، وذلك أمر فطري لا يستطيع إنكاره أحد مهما بلغ به التعالي والعناد، وشاهده رغبة الإنسان في الوصول إلى أسمى الدرجات، واشتياقه العودة إلى قوة لا تعلوها قوة أخرى، يرفع إليها دعاءه، ويفر إليها وقت الحاجة والخوف، ليجد عندها الدفء والأمن والاستقرار، إنها الايمان بالله ولا شيء سواه.

3- إن دعاوى المفلسين في جنب الله والقائمة على أن الزيادة السكانية تهدد العالم بالكوارث البشرية، لأن كثيراً منهم لن يجد الماء ليشرب ولا لقمة الزاد ليأكل ولا الهواء النقي ليتنفس، هي في واقعها وهم لا أساس له من الصحة، سوى ما يتصوره اولئك من واقع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وذلك لأن الله عزّ وجلّ قد قدر في الأرض أرزاقهم، ولم يقسم على شيء في كتابه بمثل ما أقسم في قضية الرزق حيث قال: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[3].

ولا أحد ينكر بأن التقنية الحديثة استطاعت أن تضاعف الإنتاج في القطعة الأرضية الواحدة إلى عشرات الأضعاف عما كانت عليه سابقاً، فما بالك وأنها قامت باستصلاح باقي القطع الاخرى والتي تزيد مساحتها أضعافاً مضاعفة على ما هو مستغل ومنتج، كما أن الموارد المالية الأولى أصبحت أكثر توسعاً من ذي قبل حيث فتح التعدين والتصنيع آفاقاً عريضة تدر ملايين الدولارات على أصحابها في كل مكان، الامر الذي يجعل في الإمكان شراء كثير من الاحتياجات الغذائية عند اللزوم.

ولا أكون مغالياً من وجهة النظر الإسلامية اذا قلت بأنه لو قام أصحاب الأموال في الدولة الإسلامية بدفع زكاة أموالهم التي تقدر بمليارات الدولارات لما وجدنا أحداً من الفقراء ولاستطعنا أن نقض مضاجع الفاقة والعوز وأن نساهم في رفاهية الشعوب وسعادتها تلك تجربة قد مرت بها الدولة الإسلامية في بعض الأزمنة التي كان يطاف فيها بالزكاة وينادى في الأندية والشوارع بحثاً عن محتاج أو فقير فلا يجدون أحداً فتعاد الأموال إلى بيت المال وذلك يشعر بما لا يدع مجالاً للشك بأن خللاً ما قدأصاب المؤسسة العامة والخاصة على حد سواء فأوصل الناس إلى ما هم عليه الآن ولكن العلاج وطرق الإصلاح أمر ميسور وفي متناول الأيدي لمن أراد ذلك ودعا إليه: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[4].
وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[5].

4- البيئة في المنظور الإسلامي ليست أمراً جديداً طارئاً وإنما هي جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم وإيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله وقضائه وقدره ولا يمكن لها أن تكون يوماً بحاجة إلى دراسات مستفيضة، تزيد على التذكير الذي أمرنا به الشرع لمن ألقى السمع وهو شهيد فالنظافة وجمال المنظر وسلامة الزمان والمكان والحذر من الدنس والرجس والخبث والبعد عن مواطن الداء ومسبباته كلها أمور تضمنتها نصوص الشريعة بصورة لا يحتاج معها المسلم إلى مزيد.

ويكفي البيئة الإسلامية فخراً أنها قامت على أساس من اتمام مكارم الأخلاق والتي من شأنها أن ترقى بالمسلم في درجات الكمال الإنساني وتخرجه من أحوال الجاهلية والحضارة المادية التي لا تقيم للروح وزناً ولا تعرف إلا حساب الربح أو الخسارة.

وقد أدرك المسلمون الأوائل قيمة البيئة من خلال نصوص شرعهم الحنيف وراعوها فعاشوا حياة الأباطرة والملوك ولم ينازعهم في سيادتهم قريب أو بعيد حتى أن فراستهم بهذا العلم جعلتهم يصفون البلاد من حيث طيب هوائها أو ردائته ولم يقتصر ذلك على مشرق الدولة دون مغربها أو العكس فذكروا علامات الصحة وأسباب الداء والدواء وعابوا على بعض البلاد جوها وهواءها كالذي ذكره صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار عن مدينة (تنّس) من بلاد القيروان والتي كانت كثيرة الزرع رخيصة الأسعار لكنها وبيئة من يدخلها لا يسلم من المرض وكثيراً ما يموت بها الغرباء ولذلك قال بعض الشعراء فيها:

أيها السائل عن أرض	تنس بلد اللؤم لعمري والدنس
بلد لا ينزل القطر بها	للندى في أهلها حرف درس
فصحاء النطق في لا أبدا	وهم في نعم بكم خرس
ماؤها من قبح ما خصت به	نجس يجري على أرض نجس
فمتى تلعن بلاداً مرة	فاجعل اللعنة إذاً بالتنس(6)

نسألك اللهم أن تبارك لنا في أرضنا وأن تسقينا ماء طهوراً مباركاً وأن لا ترسل علينا ريحاً صرصراً وأن تجعل رزقنا رغداً وأن تغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم.

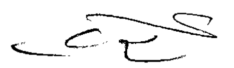
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار نسألك قبول أعمالنا وصواب أقوالنا وإخلاص أعمالنا أنك أنت نعم المولى ونعم النصير. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. فؤاد عبداللطيف السرطاوي

الاستاذ المساعد بكلية الحقوق

جامعة فيلادلفيا

عمّان/ الأردن



الهوامش

1- العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، مكتبة النهضة المصرية، ص66.

2- نفس المرجع، ص72 بتصرف.

3- سورة الذاريات، آية رقم 22-23.

4- سورة الطلاق، آية قم 2.

5- سورة النحل، آية رقم 112.

6- الاستبصار في عجائب الأمصار، كاتب مراكشي، تحقيق الدكتور، سعد زغلول عبدالحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص133.